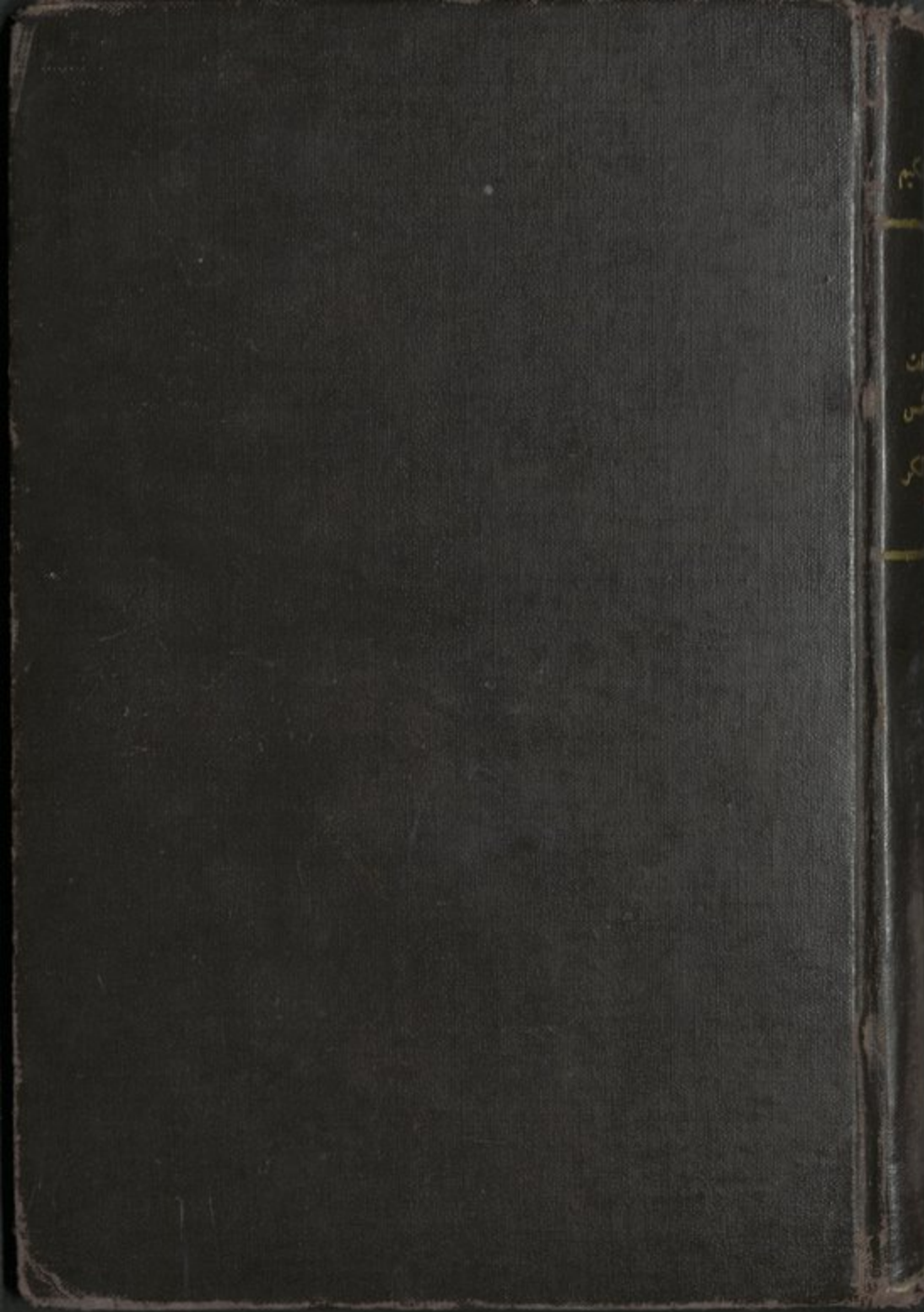
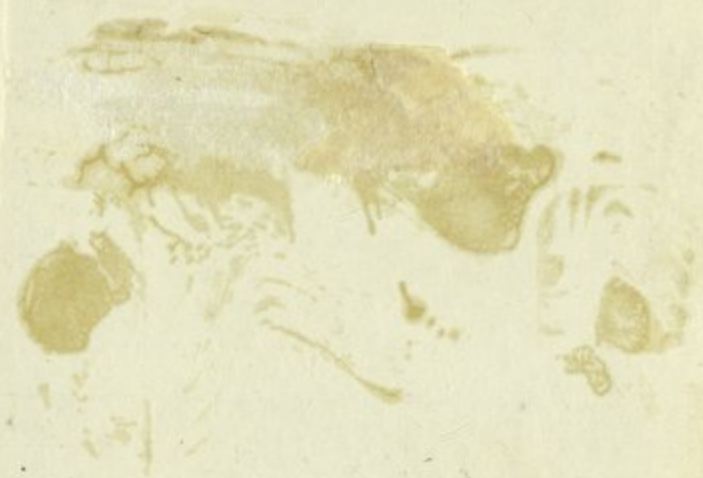






تجريد صالح الدقر
تلفون ٢٢٩٧٧

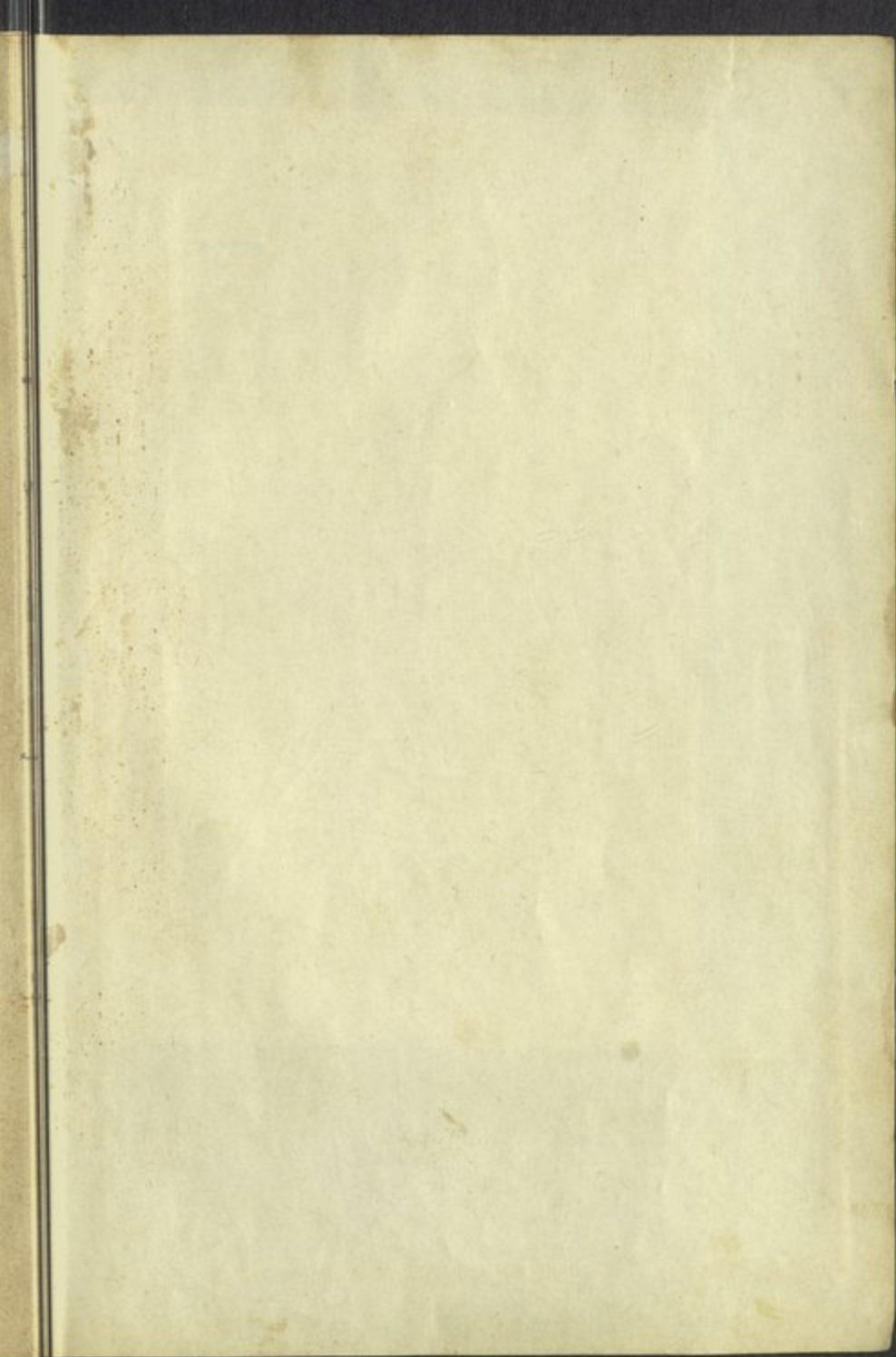
4

DATE DUE



71

97 JUN 68



توفيق الحكيم

892.74

Ha438t5A

تحت شمس الفكر

الناشر — مكتبة الآداب بالجاميزت: ٤٢٧٧٧

الطبعة (النفوس) مجبنة
١ مكة الشارعية البصرة البصرة

الطبعة الرابعة
أضيفت إليها فصول جديدة

(٣)

كتب للمؤلف

نشرت في اللغة العربية

محمد { الطبعة الأولى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر)
الطبعة الثانية : (مطبعة المعارف عام ١٩٣٦)

شهرزاد { الطبعة الأولى : (مطبعة دار السكتب عام ١٩٣٤)
الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٤)
الطبعة الثالثة : (المطبعة النموذجية عام ١٩٥٢)

أهل الكهف { الطبعة الأولى : (مطبعة مصر عام ١٩٣٣)
الطبعة الثانية : (مطبعة الاعتاد عام ١٩٣٣)
الطبعة الثالثة : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٤٠)

الطبعة الرابعة : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٥)
الطبعة الخامسة : (المطبعة النموذجية عام ١٩٤٨)
الطبعة السادسة : (المطبعة النموذجية عام ١٩٥٣)

عودة الروح { الطبعة الأولى : (مطبعة الرغائب عام ١٩٣٣)
الطبعة الثانية : (مطبعة المعارف عام ١٩٤٦) في جزئين

تحت شمس الفكر { الطبعة الأولى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر)
عام ١٩٣٨

الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤١)

الطبعة الثالثة : (مطبعة سعد مصر عام ١٩٤٥)

الطبعة الرابعة : (المطبعة النموذجية عام ١٩٥٤)

تاريخ حياة معدة { الطبعة الأولى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر)
عام ١٩٣٨

الطبعة الثانية : (مطبعة سعد مصر عام ١٩٤٥)

تابع الكتب التى نشرت فى اللغة العربية

- | | | |
|---|---|----------------------|
| الطبعة الأولى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨) | } | عهد الشيطان |
| الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٢) | | |
| (مطبعة التوكل عام ١٩٣٩) | } | يراكدا ومشكاة الحكيم |
| الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٣٩) | | |
| الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٠) | } | راقصة المعبد |
| (مطبعة مصر عام ١٩٤٠) | | |
| الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٠) | } | فسيد الإنشاد |
| الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٢) | | |
| الطبعة الثالثة : (المطبعة النموذجية عام ١٩٥٢) | } | سحار الحكيم |
| الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٤١) | | |
| الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٢) | } | سلطان الظلام |
| (مطبعة التوكل عام ١٩٤٢) | | |
| (مطبعة التوكل عام ١٤٤١) | } | من البرج العاجى |
| (مطبعة التوكل عام ١٩٤٢) | | |
| (مطبعة دار الهلال عام ١٩٣٤) | } | تحت المصباح الأخضر |
| | | |
| الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٢) | } | أهل الفن |
| الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٤) | | |
| الطبعة الأولى : ويشمل قصص : سر المتحجرة ، سر الجنون ، رصاصة فى القلب ، جنسنا اللطيف (مطبعة الاعمال عام ١٩٣٧) | } | بجماليون |
| الطبعة الثانية : ويشمل قصص : سر المتحجرة ، سر الجنون ، رصاصة فى القلب ، جنسنا اللطيف (مطبعة الاعمال عام ١٩٣٧) | | |
| بالاشتراك مع الدكتور طه حسين (مطبعة دار النشر الحديث عام ١٩٣٦) | } | مسرحيات |
| | | |
| الطبعة الأولى : ويشمل قصص الخروج من الجنة أو المهمة ، أمام شبك النداء كز . الزمار . حياة تحطمت (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٧) | } | القصر المسحور |
| | | |
| | } | مسرحيات |
| | | |

تابع الكتب التي نشرت في اللغة العربية

الطبعة الأولى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
عام ١٩٣٧)

الطبعة الثانية : لحساب وزارة المعارف العمومية
(مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر عام ١٩٣٧)
الطبعة الثالثة : (مطبعة مدرسية) (النموذجية ١٩٤٩)
الطبعة الرابعة : (النموذجية ١٩٥٣)

يوميات نائب
في الأرياف

الطبعة الأولى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة
والنشر عام ١٩٣٨)

الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤١)
الطبعة الثالثة : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٣)
الطبعة الرابعة : (المطبعة النموذجية عام ١٩٥١)

عصفور من
الشرق

الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٣)
الطبعة الثانية : (المطبعة النموذجية عام ١٩٤٩)

سليمان الحكيم

الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٣)
الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٤)

زهرة العمر

(مطبعة التوكل عام ١٩٤٤)

رصاص في القلب

(مطبعة سعد مصر عام ١٩٤٤)

الرباط المقدس

(مطبعة المعارف عام ١٩٤٥)

حمادى قال لى

(مطبعة التوكل عام ١٩٤٥)

شجرة الحكم

(المطبعة النموذجية عام ١٩٤٩)

الملك أرويد

قصص توفيق الحكيم (المجموعة الأولى والثانية) (مطبعة دار سعد مصر ١٩٤٩)

(المطبعة النموذجية عام ١٩٥٠)

مسرح المجتمع

(المطبعة النموذجية عام ١٩٥٢)

فن الأدب

(مطبعة المعارف عام ١٩٥٣)

ذكريات النمن والقضاء

(مطبعة الهلال عام ١٩٥٣)

عصا الحكيم

كتب للمؤلف

نشرت في لغة أجنبية

ترجم ونشر في باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج
ليكونت عضو الأكاديمية الفرنسية . في دار نشر نوفيل
أنديسون لاتين وترجم الى الإنجليزية ونشرت
مختارات منه في دار النشر (بيلوت) بلندن ثم في دار
النشر كراون بنيويورك . في عام ١٩٤٥

شهرزاد

ترجم ونشر بالروسية في ليننجراد عام ١٩٣٥
وبالفرنسية في باريس عام ١٩٣٧ في دار (فاسكيل
للنشر . وبالإنجليزية ونشرت مختارات منه في لندن عام ١٩٤٢

عودة الروح

ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩ (طبعة أولى) وفي عام
١٩٤٢ (طبعة ثانية) وترجم ونشر باللغة العبرية عام ١٩٤٥
وترجم ونشر باللغة الإنجليزية في (دار هارفل) للنشر
بلندن عام ١٩٤٧ وترجم الى الألمانية في مدريد عام ١٩٤٨

يوميات نائب
في الأرياف

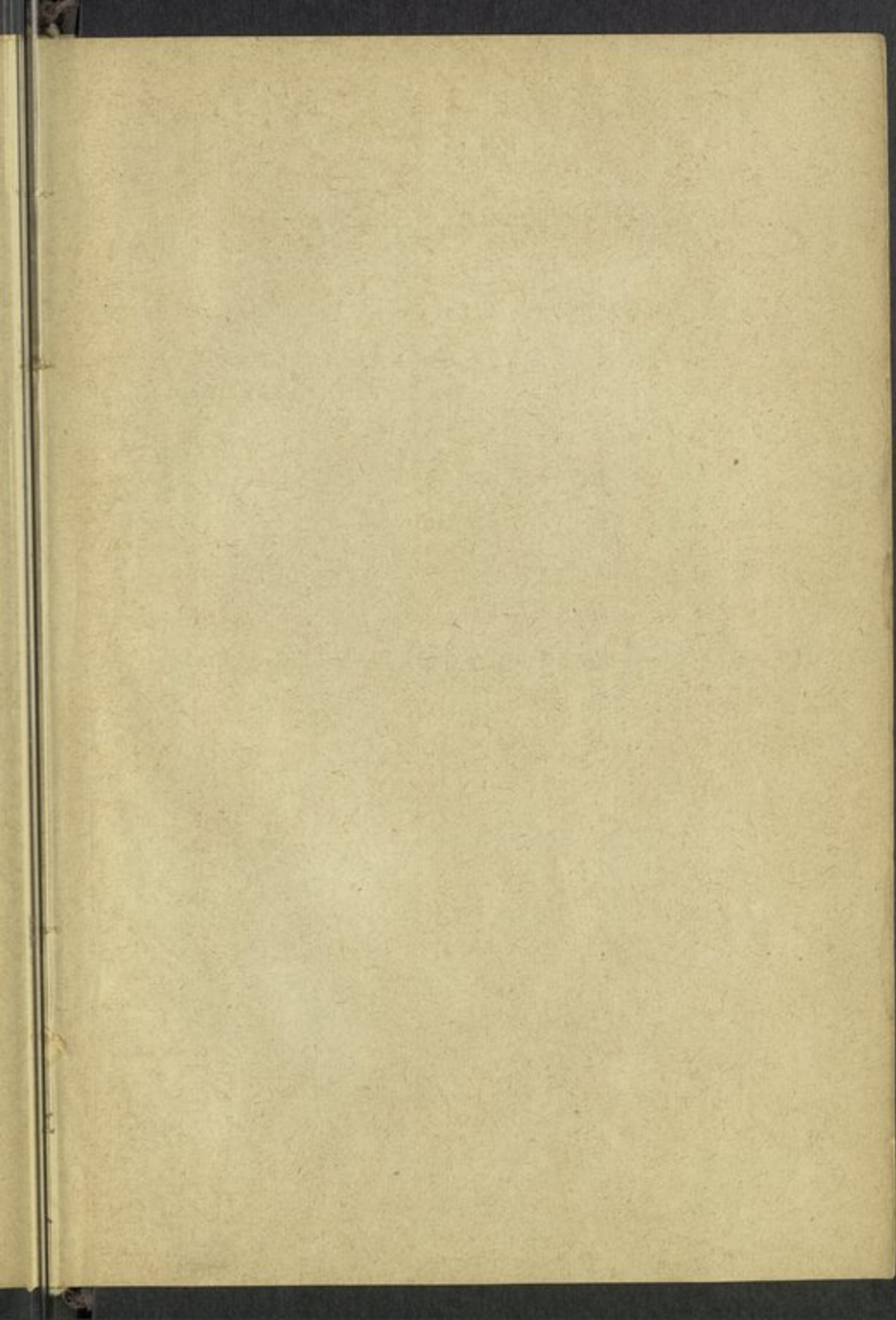
ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخي
لجاستون فييت الأستاذ بالكلية دي فرنس ثم ترجم
الى الإيطالية بروما عام ١٩٤٠

أهل الكهف

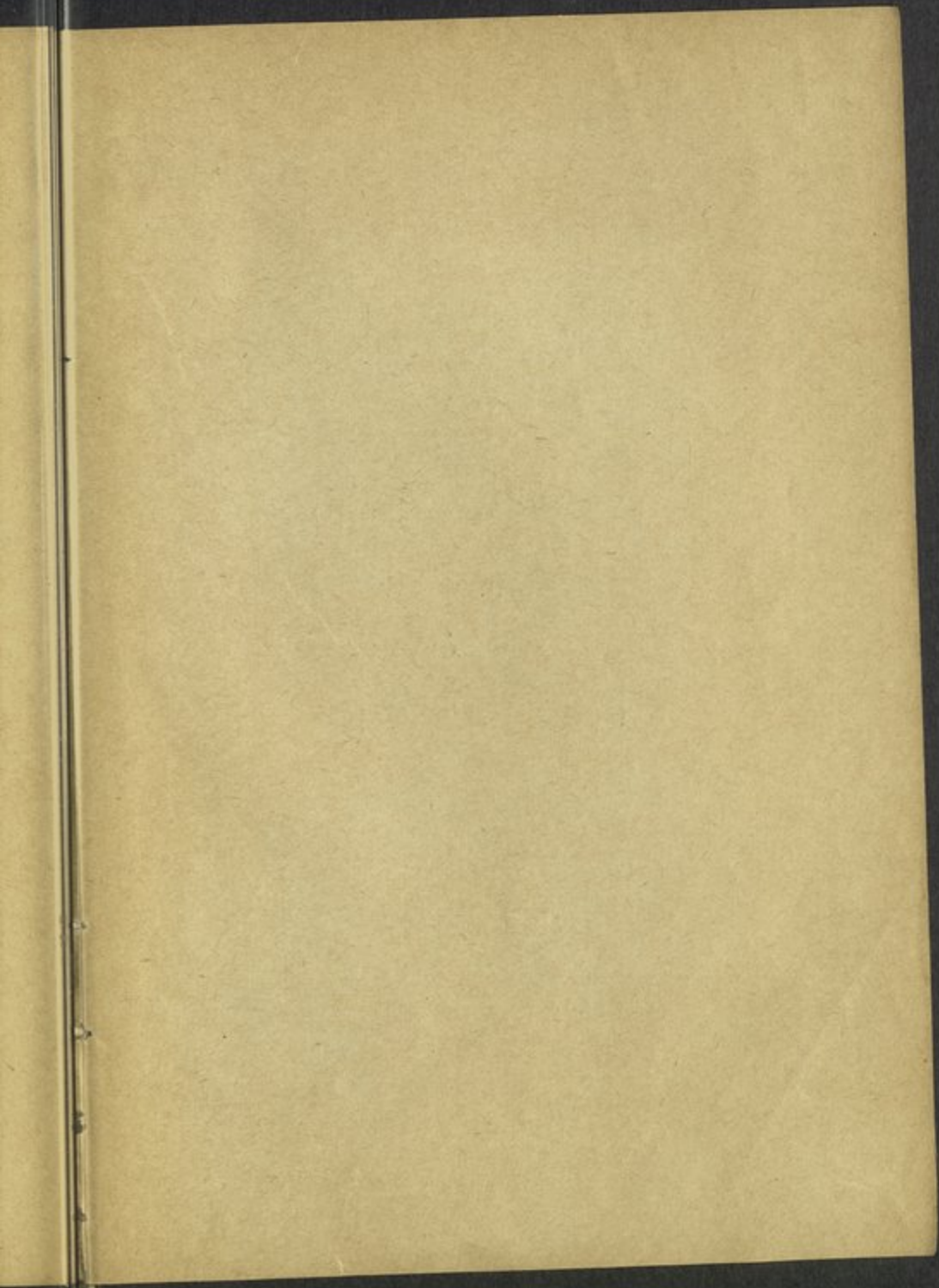
عصفور من الشرق) ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤١

تابع الكتب التي نشرت باللغة الأجنبية

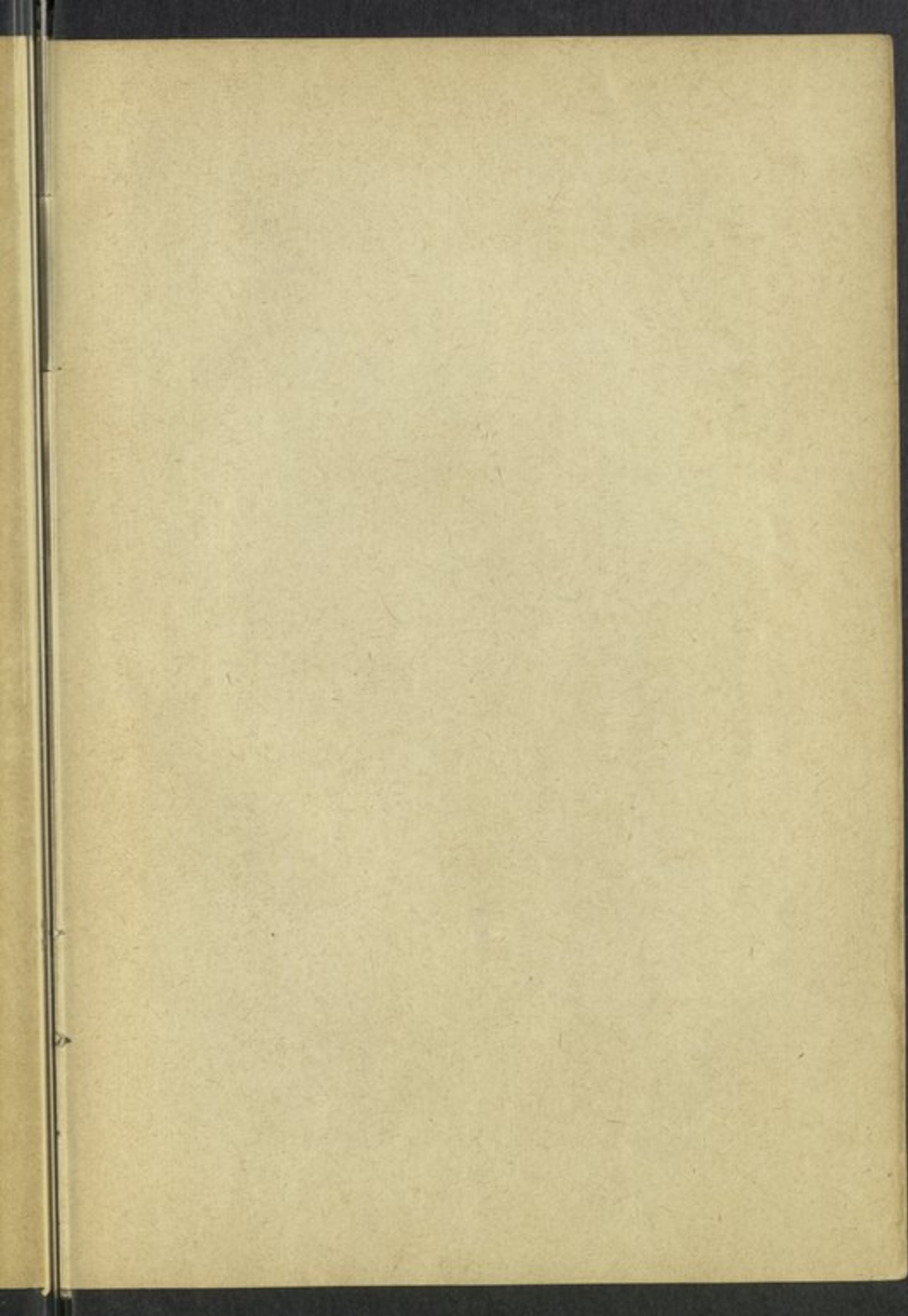
بجاليون	:	ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠
أوديب	:	ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠
سليمان الحكيم	:	» » » » » » »
نهر المنون	:	» » » » » » »
عرف كيف يموت	:	» » » » » » »
انخرج	:	» » » » » » »
بيت النمل	:	» » » » » » »
الزمار	:	» » » » » » »
(« في بلاد بعنوان مسرحيات عربية عن دار نشر « نوفيل ايديسيون لافين بباريس »)		



تحت شمس الفكر
عرفت النور
ورأيت الجمال
ولكني .. احترقت !



في الدين



يبدو عمل الدين ضرورة للبشر . إلى ما كتبت هذه الكلمة اليوم
إلا لألفت نظر رجال الدين إلى وجوب التسامح والهدوء كلما
قام باحث يتكلم في الدين عن طريق العقل ، فإن الشرق اليوم مقبل
على حياة علمية واسعة مهادها المعاهد والجامعات ، ولا بد لنماء
ملكه العقل من التفكير الحر الطليق ، كما أنه لا بد لحياة ملكه
القلب من الشعور الحار العميق . فليترك رجال الدين المفكرين
يفكرون كما يشاؤون ، ويثرثرون كما يريدون ، ويعرضون بضاعتهم
الكلامية التي هي كل بهرجهم الآدمي الأجوف ، فإن كل هذا
الضجيج لن يصل خبره إلى القلب الذي لا يفتر لحظة عن التسبيح
رغمًا عنهم بالعقيدة التي ركبت عليها حياته النابضة ...

الدفاع عن الاسلام

قرأت لثلاث عشرة سنة خلت (١) قصة فولتير التمثيلية «محمد»،
فخجلت أن يكون كاتبها معدوداً من أصحاب الفكر الحر ، فقد سب
فيها النبي العربي سباقياً عجبت له ، وما أدركت له علة . لكن عجي
لم يطل ، فقد رأيته يهديها إلى البابا بنوا الرابع عشر بهذه العبارات :
« فملتستغفر قداستك لعبد خاضع من أشد الناس إعجاباً بالفضيلة ،
إذ تجرأ فقدم إلى رئيس الديانة الحقيقية ما كتبه ضد مؤسس
ديانة كاذبة بربرية ، وإلى من ، غير وكيل رب السلام والحقيقة ،
أستطيع أن أتوجه بنقدى قسوة نبي كاذب وأغلاطه ؟ فلتأذن لي
قداستك في أن أضع عند قدميك الكتاب ومؤلفه ، وأن أجرؤ
على سؤالك الحماية والبركة ، وإني مع الإجلال العميق أجش وأقبل
قدميك القدستين » (فولتير ١٧ أغسطس ١٧٤٥)

وعلمت في ذلك الحين أن روسو كان يتناول بالنقد أعمال
فولتير التمثيلية ، فاطلعت على ما قال في قصة « محمد » علني أجد ما
يرد الحق إلى نصابه ، فلم أر هذا المفكر الحر أيضاً يدفع عن محمد
ما ألصق به كذباً ، وكأن الأمر لا يعنيه ، وكأن ما قيل في هذا
النبي لا غبار عليه ولا حرج فيه ، ولم يتعرض للقصة إلا من حيث
هي أدب وفن . ولقد قرأت بعد ذلك رد البابا بنوا على فولتير ،

(١) من تاريخ الطبعة الأولى لهذا الكتاب في عام ١٩٣٨

فألفيته ردأ رقيقاً كيساً لا يشير بكلمة واحدة إلى الدين . وكله حديث في الأدب . فعظم عجبى لأمر فولتير ، وسألت نفسي طويلاً : أيستطيع عقل مثقف كعقل هذا الكاتب العظيم أن يعتقد ما يقول ، دين تبعه آلاف الملايين من البشر على مدى الأجيال ، هو في نظره حقاً دين كاذب ؟ ومبادئ إنسانية كالتى جاء بها الإسلام هى عنده حقاً مبادئ بربرية ؟ أم إنه التملق والزلفى والنفاق . وإن الزمن والتاريخ يضعان أحياناً أقنعة زائفة على نفوس تزعم أنها خلقت للدفاع عن حرية الفكر .

منذ ذلك اليوم وأنا أحس كأنى فجعت فى شيء عزيز لى : الإيمان بنزاعة الفكر الحر . ولقد كنت أحياناً ألتس الأعذار لفولتير ، وأزعم أنه قال ما قال لأعن مجاملة أو ملق ، بل عن عقيدة وحن طوية استناداً إلى علم خاطئ بأخبار النبى ، ولكن كتابه إلى البابا كان يتهمة اتهاماً صارخاً ، ويدع . مجالا للشك فى دخيلة أمره . إنى قرأت لفولتير كتباً أخرى كانت تكشف عن آراء حرة حقاً فى مسائل الأديان ، وتم عن روح واسعة الآفاق تكره التعصب الذمى ، فما باله عندما عرض لذكر محمد والإسلام كتب شيئاً هو التعصب ببعينه ، تعصب لدينه ، ذهب فيه إلى حد السجود وتقبيل الأقدام ، لالرب العزة والخلق ، بل لبشر هو رئيس الكنيسة التى ما أرى أن فولتير كان فى ذات يوم من خدامها المخلصين ! هى الاطماع التى كانت تدفع فولتير فيما أرى إلى التمسح

بأعتاب الملوك والبابوات ، ولقد يقدم ثمناً لذلك أفكاره الحرة
 أحياناً . منذ ذلك الحين وفولتير عندي متهم ، ولن أربته أبداً ،
 ولن أعده أبداً من بين أولئك العظام الذين عاشوا بالفكر وحده
 والفكر . وأحسب أن التاريخ العادل سوف يحكم عليه هذا
 الحكم . على أن الذى يدعو إلى الدهش أكثر من كل هذا أن
 الشرق والإسلام وقفنا من الأمر موقف النائم الذى لا يعي
 ولا يشعر بما يحدث حوله ، فلم أر كاتباً من كتاب الإسلام قام
 فى ذلك الوقت يدفع عن دينه هذا الهراء الذى قال فولتير ؟
 ويقذف فى وجه هذا الكاتب بالحقائق الباهرة القاطعة ، أو أن
 مؤلفاً وضع كتاباً يبرز فيه شخصية النبي العظيمة واضحة جليلة ، لقد
 كان الشرق فى ليل هادى بهم لم تثر فيه حركة فولتير يومئذ كناً ،
 ولكن اليوم قد تغير الأمر ، ولاحت فى أفق الشرق خيوط الفجر ،
 وقام فى هذا القرن كتاب يمجدون عقيدتهم وهم يعلمون أن فى
 ذلك تمجيذاً للحق وللشرق ، فإن المسألة ليست مسألة دين فقط ،
 إنما هى أيضاً مسألة جنس وقومية ؛ وإذ تقول أوروبا : « الإسلام ،
 فانما تعنى فى غالب الأحيان « الشرق » ، والدفاع عن الإسلام
 لم يكن فى كل الأحيان دفاعاً عن عقيدة وديانة ، إنما هو دفاع عن
 حياة تلك الكتلة التى يسميها الغربيون : « الشرق » . إن الحروب
 الصليبية فى حقيقتها لم تكن إلا حرب الغرب على الشرق ؛ وإن
 الفتح الإسلامى عندما بلغ فرنسا وهدد أوروبا لم يكن فى الواقع

إلا حرب الشرق على الغرب . هذا المد والجزر بين الغرب والشرق يفهمه مفكرو الأوربيين تمام الفهم ، ويحسبون له الحساب ، ويعملون دائماً على أن تكون الغلبة لهم آخر الأمر ، أو أن يطيلوا على الأقل أمد غلبتهم إن كان لابد من تبدل الحال ومن دوران الفلك طبقاً لناموس أعلى لا قبل لهم به . فالدفاع عن شخصيتنا وعقيدتنا دفاع عن حياتنا ، وإن الكتابات التي توجه لهذا الغرض النبيل ينبغي أن يكون لها علينا حق الموازنة والتعصيد ، وإنني لست بناقد منقطع للنظر في أعمال المؤلفين وتقدير قيم ما يكتبون ، ولكنني أريد أن أشير لإشارة سريعة إلى صوت من الشرق ارتفع في العصر الحديث محتجاً مدافعاً : هو صوت الأستاذ الإمام محمد عبده ، في رده على « هانوتو » . فلقد نشر جابريل هانوتو الكاتب والوزير الفرنسي يوماً مقالة جاء فيها :

« قد أصبحنا اليوم إزاء الإسلام والمسألة الإسلامية . اخترق المسلمون أبناء آسيا شمال القارة الأفريقية بسرعة لا تجارى ، حاملين في حقائبهم بعض بقايا تمدن البيزنطيين (يونان الشرق) ثم تراءوا بها على أوروبا ، ولكنهم وجدوا في نهاية انبعاشهم هذا مدنية يرجع أصلها إلى آسيا ، بل أقرب في الصلة إلى المدنية البيزنطية مما حملوه معهم ألا وهي المدنية الآرية المسيحية . ولذلك اضطروا إلى الوقوف عند الحد الذي إليه وصلوا ، وأكروا على الرجوع إلى أفريقية حيث ثبتت فيها أقدامهم أحقاباً متعاقبة » . ثم قال في موضع

آخر : « وقصر فريق منا بحثه وحكمه على مشاهدته من المناقضات والخلافات بين الدينين المسيحي والإسلامي ، فرأى في الإسلام العدو والألد والخصم الأشد . قال المسيو كيمون في كتابه « باتولوجيا الإسلام » : ان الديانة المحمدية جذام فشا بين الناس وأخذ يفتك فيهم فتكا ذريعاً ، بل هي مرض مروع وشلل عام ، وجنون ذهولي يبعث الإنسان على الخول والكسل ، ولا يوقظه منهما إلا ليسفك الدماء ، ويدمن معاقرة الخمر ويجمع في القبائح . وما قبر محمد في مكة إلا عمود كهربائي يث الجنون في رؤوس المسلمين ويلجهم إلى الإتيان بمظاهر الهستيريا (الصرع) العامة والذهول العقلي ، وتكرار لفظة الله إلى مالا نهاية ، وتعود عادات تنقلب إلى طباع أصلية ككراهية لحم الخنزير والتبذير الموسيقي ، والجنون الروحاني ، والليمانيا ، والماليخوليا وترتيب ما يستتبط من أفكار القسوة والفجور في اللذات » الخ . أمثال هذا الكاتب يعتقدون أن المسلمين وحوش ضارية ، وحيوانات مفترسة كالفهد والضبع ، كما يقول المسيو كيمون : « وأن الواجب إبادة خمسهم » . كما يقول أيضاً : « الحكم على الباقيين بالأشغال الشاقة ، وتدمير الكعبة ، ووضع ضريح محمد في متحف اللوفر » . وهذا أيضاً قوله : « . . . وهو حل بسيط وفيه مصلحة للجنس البشري . . . أليس كذلك ؟ ولكن قد برح عن خاطر الكاتب أنه يوجد نحو ١٣٠ مليوناً مسلماً (١) ، وأن من الجائز أن

(١) عدد المسلمين الحقيقي في العالم يبلغ نحو ٤٠٠ مليون .

يهب هؤلاء « المجانين » للدفاع عن أنفسهم والذود عن بيضة دينهم ، الخ الخ .

ما كاد يظهر هذا الكلام في صحيفة المؤيد ، حتى قام الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده لساعته مجرداً قلبه وكتب نحو أربع مقالات هي أقوى ما قرأت دفاعاً عن الإسلام ، وإظهاراً لحقيقة مبادئه الخافية على أغلب الأوروبيين . وقد رد على هانوتو فيما أوردنا صائحاً : « ما هذا التمدن الآري الذي كانت عليه أوربا عندما انتقص أطرافها المسلمون ؟ هل كانت تلك المدنية هي التسافك في الدماء ، وإشهار الحرب بين الدين والعلم ، وبين عبادة الله وبين الاعتراف بالعقل ، نعم هذا هو الذي كان معروفاً عند الغربيين وقت مظهر الإسلام ! ماذا حمل الإسلام إلى أوربا ، وما هي المدنية التي زحف عليهم بها فردها ؟ زحف عليهم بما استفاد من صنائع الفرس وسكان آسيا من الآريين ، زحف عليهم بعلوم أهل فارس والمصريين والرومانيين واليونانيين . نظف جميع ذلك ونقاها من الأدران والأوساخ التي تراكت عليه بأيدي الرؤساء في الأمم الغربية لذلك التاريخ ، وذهب به أبلج ناصعاً بهر به أعين أولئك الغافلين المتسكعين الذين كانوا في ظلمات الجهالة لا يدرون أين يذهبون .

« إنني أكيل لمسئو هانوتو إجمال بإجمال ، والتفصيل لا يحمله قومه ، وكثير من منصفهم لم يستطع إلا الاعتراف به .

« إن أول شرارة ألهبت نفوس الغربيين فطارت بها إلى المدنية

الحاضرة كانت من تلك الشعلة الموقدة التي كان يسطع ضوءها من بلاد
الاندلس على ما جاورها . وعمل رجال الدين المسيحي على إطفائها
مدة قرون فما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . واليوم يرعى أهل أوربا
مانبت في أرضهم ، بعد ماسقيت بدماء أسلافهم المسفوكة بأيدي
أهل دينهم في سبيل مطاردة العلم والحرية وطولع المدنية الحاضرة .
ثم رد الإمام في موضع آخر : « يجب على الباحث في الإسلام
أن يطلبه في كتابه : كما يجب عليه أن يطلب آثاره والإسلام إسلام ،
والمسلمون مسلمون ، ولو استشتم مسيو (كيمون) الذي استشهد
هاتو تو بكلامه ريح العلم لما استفرغ ذلك القدر من فيه ، فسخاوة
رأيه وقلة أدبه تكفيه .

« من أين أتى المسلمون وكيف دخل عليهم في عقائدهم بالتشبيه ،
وفي عوائدهم بالتبويه ؟ ومن تعلموا الافتراس ، وعن أخذوا الضراء
بالشبهوات ؟ أنا أعلم ذلك وأهل العلم يعلمون . والله من ورائهم محيط .
« اتبع المسلمون سنن من قبلهم شبرا بشبر ، وذراعا بذراع ،
حتى سقطوا في مساقطهم ، وطار حوا الأوهام حتى انجروا إلى
مطارحهم ، وباءوا بما كان لهم وما عليهم . . .

« حدثت في الدين بدع أكلت الفضائل وحصدت العقائد ، وترامت
بالناس إلى حيث يصب عليهم ما استفرغه (كيمون) .

« أمالو رجع المسلمون إلى كتابهم واسترجعوا باتباعه ما فقدوه .
من آدابهم لسلبت نفوسهم من العيب ، وطلبوا من أسباب السعادة .

ماهداهم الله إليه في تنزيهه على لسان نبيه ، ومهدده لهم سلفهم وخطه لهم أهل الصلاح منهم ، واستجمعت لهم القوة ، ودبت فيهم روح الفتوة ، وكان ما يلقاه هانوتو وكيمون من دين صحيح شرأ عليهما مما يخشونه من دين شوهته البدع .

« يرى كيمون أن يخلى وجه الأرض من الإسلام والمسلمين ، ويستحسن رأي هانوتو لولا ما يقف في طريق ذلك من كثرة عدد المسلمين ، وبئسما اختار لسياسة بلدهما أن يظهر اضغغهما ، ويعلنا خطل رأيهما وضعف حللهما .

« أما فليعلم كل من يخدع نفسه بمثل حللهما أن الإسلام إن طالت به غيبة ، فله أوبة ، وإن صدعته النوائب فله نوبة ، وقد يقول فيه المنصفون من الانكليز مثل (إسحق طيلر) وهو قس شهير ورئيس في كنيسة : « إنه يمتد في إفريقيا ومعه تسير الفضائل حيث سار ، فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره والشجاعة والاقدام من أنصاره » .



نعم لقد آن للغرب أن يحترم عقائد الشرق . بل قد آن للغرب أن يدرك أن محمداً والإسلام هما من منابع الفكر الحر وطفرة من طفرات البشرية المتحررة . والدليل على ذلك شخصية النبي ذاتها وغرضه في الدعوة إلى دين جوهره إقناع النفس بالحقيقة العليا . **فمحمد هو أول نبي مجد البشرية بأن أعلن أنه بشر ، وأن دينه هو دين الفطرة البشرية ، وقاوم أولئك السفهاء الذين كانوا يطلبون**

إلى الأنبياء أن يثبتوا نبوتهم بالمعجزات فأثموا في الفكر البشري قبل أن ياثموا في حق الدين.

فالمعجزة أى الاتيان بعمل خارق للمعتاد لا تدل على شيء ولا تثبت نبوة ولا تدحضها. فإن من السكهان أو بسطاء الناس من يملكون أحياناً تلك القوى الخارقة في أجسامهم أو عقولهم أو أرواحهم دون أن يكونوا من أجل ذلك أنبياء. إن النبي ليس في حاجة إلى معجزة كي يكون نبياً. إنما النبي من حُملت رسالة علوية لا ينصرف عن الحياة حتى يؤديها، ومن فضل محمد أنه لم يشأ أن أن يقنع الناس بغير ذلك، فقد بلغهم رسالته واعتمد في إثباتها الملكات البشرية المجردة المتحررة.

فلقد جاء في كتب السيرة أن المسلمين عطشوا أثناء مسيرهم إلى غزوة تبوك فأمطرتهم السماء فقال بعضهم: (إنها معجزة)، فصاح محمد من فوره: «إنما هي سخابة مارة». وأن الشمس كسفت يوم مات ابنه إبراهيم فقال الناس: (إن هذا الكسوف معجزة) فصاح محمد: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته». هذا كلام محمد الذى قال الغرب إنه نبي كاذب !! فهل يمكن أن يكون هذا جواب نبي كاذب ؟؟

إن محمداً قد فهم حقيقة النبوة، ووعى معنى الحقيقة العليا وأدرك أن أكبر معجزة في هذا الكون هي أن لا يوجد في الكون معجزات، وأن كل شيء يسير طبقاً لنظام دقيق. وإذا قيل نظام قيل قانون،

وإذا قيل قانون قيل عقل مدبر، وهذا العقل واحد أحد تبدو سميته في إدارة الأجسام غير المحدودة في العظم كما تبدو في إدارة الأجسام غير المحدودة في الصغر، ذات اليد العلوية وعين أثرها في كل شيء، يد واحدة لا تتغير وقانون واحد لا يتغير. إن محمداً قد تأمل الطبيعة كثيراً أيام عزله الطويلة في غار حراء، وفكر ملياً في نظامها العجيب فكشف عن بصيرته وبصره، فامتلاً قلبه بالله الواحد، كما اقتنع عقله بوجوده، فجاء دينه ديناً كاملاً، صادقاً في نظر القلب والعقل معاً. ولئن كان على الأرض نبي حرص على أن يجاهر بمحبة العلم ومصادقته ولم يخش دينه العلم، ولم يضطهد العلماء، فهو «محمد» الذي قال: «فضل العلم خير من فضل العبادة» «اطلب العلم ولو في الصين» وكثيراً من الأحاديث التي تثنى على العلم وتحض عليه. ذلك أن مصدر إقناع العلم ومصدر إقناع محمد واحد: الكون وملاحظة ما فيه من إبداع ينم عن عقل مبدع هائل. في كتاب حديث للعالم أنشتين فصل ذكر فيه رأيه في الدين، فقال إنه يعتقد ما يسميه انديانة الكونية «تلك الديانة التي تملأ قلب كل عالم انقطع لتأمل ذلك التناسق العجيب بين قوانين الطبيعة وما يخفى من عقل جبار لو اجتمعت كل أفكار البشر إلى جانبه لما كونت غير شعاع ضئيل أقرب القول فيه أنه لا شيء».

لا ريب عندي أن إحساس أنشتين نحو الكون والله هو عين إحساس محمد يوم كان يتحنث في غار حراء قبل نزول الوحي.

إنما الأنبياء والعلماء قلوب واعية تشعر بجلال الله . ولا يمكن لنبي أن يكون نبياً إلا أن يشعر من تلقاء نفسه بعظمة الحقيقة ويتحرق شوقاً إلى معرفة سرها ، ولا يزال الشوق بقلبه حتى يكشف له الصانع الأعظم عن بعض نوره ، ويوحى إليه بنشر هذا النور على الإنسانية . إنى كلما تأملت شخصية محمد مجردة ثبت إيماني بأن الخصومة المعروفة بين العلم والدين ليس لها في الحقيقة وجود ، وإن الدين الحق لا يتعارض والعلم الحق . . . بل إن الدين والعلم شيء واحد ، كلاهما يطلب نور الله ويريد وجهه ، وكلاهما يعي ويؤمن ويلهج بتناسق الوجود ووحدته قوانينه ودلالته وحده الوجود على وحدة الخالق : ولم يظهر نبي حق ولا عالم حق شعر بغير ذلك . إنما الفارق بين العلم والدين هو في السبل التي يسلكها كل في الدنو من الله . ومن قال إن وسائل العلم ينبغي أن تماثل وسائل الفن أو وسائل الدين ؟؟

إن الطرائق والسبل يجب أن تظل مختلفة مميزة لا يختلط بعضها ببعض إنما المصدر واحد دائماً والغاية واحدة . فما الدين والعلم والفن إلا خيوط ثلاثة كتب على بشريتنا القاصرة العمياء أن تتمسك بها لتتهدى إلى ذلك النور الذي لا بداية له ولا نهاية : الله . . .

نجم أحمد !

وقف اليهودى على أحد آطام يثرب ناظراً إلى السماء يعلن
إلى بنى قومه ميلاد النبي فى صيحة مدوية : « طلع الليلة نجم أحمد »
عجباً من العجب ! أحقاً لم ير ذلك اليهودى نجم أحمد قبل تلك
الليلة ؟ يخيل إلى أن الناس فى ذلك الزمان كانوا يسرون مطرقين
كالعميان . إن نجم أحمد طالع فى كل لحظة يشع نوراً من بدايه
السكون لو أن للسكون بداية . إلى نهاية الزمن لو أن للزمن نهاية !
نجم أحمد هو الحق . [والحق لا يبدأ ولا ينتهى . ولا يظهر ولا يختفى]
إنه موجود .

إذن ما الإسلام ؟ وكيف ظهر الإسلام بظهور محمد والمسيحية
بظهور المسيح واليهودية بظهور موسى ؟ هنا لزم للتفريق بين الحق
وثوب الحق . بين المعنى والأسلوب . ما الإسلام إلا أسلوب من
أساليب الحق ، ورداء من أردسته . كذلك المسيحية وكذلك
اليهودية . وكذلك كل دين من تلك الأديان السماوية التى تتحد فى
الجوهر وتختلف فى المظهر . وهنا نستطيع أن نقاضل بين الأساليب ،
وهنا فقط يجوز لنا أن نقاخر بالدين الأخير ، إذ جاء بأسلوب جامع
مانع ، سهل ممتنع ، محكم الوضع ، مصقول التراكيب . فالمفاضلة لا
تسكون فى الجوهر ، لأنه واحد أحد ، إنما المفاضلة فى الأثواب .
وهنا يخطر على البال سؤال : هل تجوز المفاضلة بين الأثواب

وهي كلها من صنع الخالق المعصوم الذي لا ينبغي أن يخطئ ولا أن يصحح ما سبق أن صدر عنه . أو أن جوهر الحق وحده من شأن الله ، أما الأسلوب الذي يعرض به على الناس فهو من شأن الرسل والأنبياء ؟ قبل الإجابة عن هذا السؤال يجب النظر في قضية أخرى : هل للطبع والمزاج والخلق الذي ركب عليه النبي أو الرسول أثر في أسلوب رسالته ؟ هل شخصية الرسول تطبع بخاتمها شكل الدين الذي يدعو إليه ؟ وهل لظروف العيش التي نشأ عليها النبي دخل في اتخاذ « القلب » الذي أفرغ فيه « موضوع » النبوة ؟ إن أجب على كل هذا بالإيجاب فإن التبعية في « أسلوب » الأديان تقع بلامراء على كاهل الأنبياء . والنبي إذن مسئول عن الطريق الذي اتبعه للإبانة عن « الحق » مسئولية ملقاة على « شخصيته » التي صبغت الشريعة بصبغتها . وعلى قدر المسئولية تكون العظمة ، وعلى قدر « الشخصية » ذات الوجود الفعلي تقاس العبقرية العظمى والمجد الأسمى .

إن صح هذا الكلام فإني أستطيع القول أن النبي أو الرسول لا يصل إلى الحق متجرداً عن شخصيته . بل إنه لا يستطيع الدنو من الحق إلا عن طريق شخصيته . كذلك فعل النبي العربي ، وكذلك فعل المسيح وموسى . وكذلك كل نبي لا يستطيع أن يرى الحق إلا عن طريق إحساسه وطبعه وعقله . . . وهي ملكات تختلف باختلاف الأشخاص . وهنا يبدو سر تباين الأساليب التي

جرت عليها الأديان في عرض جوهر الحق على الناس . ولعل محمداً هو أكثر الأنبياء حرصاً على تنبيه الناس في كل مناسبة إلى وجود شخصيته المستقلة ، فهو لا يفتر يذكرهم أنه بشر خاضع للقوانين التي يخضع لها البشر ، وأنه لا يتصل بالله هذا الاتصال الخاص الذي قصر على الرسل إلا إذ يشاء الله ، وأنه في كثير من حياته الخاصة أو العامة حيث لا وحي يهديه السبيل يتصرف كما يتصرف البشر . وهكذا فعل في معارك بدر وأحدو الخندق إذ كان يستمع إلى مشورة أصحاب الرأي من رجاله . وهكذا فعل إذ لم يخف ميله إلى الطيب والنساء . بل إنه أعلن ذلك الميل لعلهم أن الميول منميزات الطبع التي ركبها الخالق في البشر . والنبي الحق أجل من أن يكتم مزاجاً أو طبعاً ، وهو يعرف أن المزاج والطبع من مقومات الشخصية .

وهنا تبدو حكمة الإسلام ظاهرة بين سائر الأديان ، فهو دين بسيط فطري لم تدخله صناعة ، كل شيء فيه صادق خالص صاف . ليس فيه إنكار لقوانين الطبيعة ، بل فيه مسابقة حكيمة ومصاحبة رشيدة لكل ما فرضه النظام العلوي على البشر من حيث تركيبهم المادي والمعنوي . ذلك أن أسلوب محمد في إدراك « الحق » كان أسلوباً مستقيماً . فهو قد أدرك أن « معنى » الحق إنما هو « السبب » الذي يصدر عنه الناموس الأكبر ، وأن روح الوجود هو « النظام » إذ لا يتصور أن تكون « المفوضى » من عناصر الخلقية .

بل إن «الفوضى» إذا حلت في نظام الوجود انقلبت نظاماً ، لأنه لاوجود بلا نظام ، بل إن كلمة «الفوضى» لا محل لها إلا في أدمغة البشر يعبرون بها عن كل ما يحدث شيئاً من الخلل في ترتيب حياتهم الضيقة المحدودة . أما الكون غير المتناهي فلا يعرف غير النظام ، الذي فرض على الانسان والحيوان والجماد . هل من سبيل إلى مخالفته ؟ إن مخالفة النظام الطبيعي للإنسان والأشياء مخالفة لله ، وكل من يقف في وجه النظم الطبيعية لا يمكن أن يكون من عند الله ، لأن الله لا يناقض نفسه . كل هذا فهمه محمد ووعاه بيصيرته النورية النافذة ، فجاء أسلوب الاسلام في الإفصاح عن «الحق» واضحاً جلياً ، لا يأمر بالرهبة ، ولا بالفرار من الدنيا ، ولا بتعذيب الجسد من أجل الله ، لأن الله لا يأمر بتحطيم ما بناه .

إنما يريد الله أن تعيش الأحياء طبقاً لقوانين الحياة التي وضعها لها ، وأن تجاهد في سبيل هذه الحياة ، وأن تغلب على عناصر الفناء بما هبأ لها من مناعة طبيعية ، أو مناعة اكتسائية . والدين هو أداة المناعة الاكتسائية لمكافحة عناصر الفناء المادية والأدبية . فلتن كانت غاية الدين عند البشر توفير أسباب الحياة الصحيحة ، والدنيا الصحيحة خير تمهيد لآخرة صحيحة ، فإن الاسلام بلا مرأه هو دين الصحة في كل شيء . فهو ذو صوت جهير في الدعوة إلى صحة الجسم وصحة العقل وصحة العقيدة . ولئن كان ماضى هذا الدين السليم مجيداً ، فإن مستقبله ولا ريب يشير

بازدهار يعم الأرض لو استطعنا أن نجرده من سفسطة الجامدين،
وننقيه من ثرثرة المتنطعين، وننقذه من احتكار الجهال المحترفين؛
وأن نرده إلى مبادئه البسيطة الصافية التي لا تصدم تقدماً
ولا تعارض التطور الطبيعي للأذهان والأشياء. وقتئذ فقط
نستطيع أن نغزو به كل النفوس وكل العقول، فإن الدين «المثالي»
هو الدين البسيط. وهل أبسط من الإسلام شريعة وهي لا تعرف
«رجال دين» ولا تقدر وجود أناس يجعلون من هداية الناس حرفة
يأكلون منها ويكثرون، ومن «الدين» مهنة تدر الرزق وتعطي
متاع «الدنيا»؟ إن أولئك الذين يجعلون «الدين» سلباً «للدنيا»
لا «الدنيا» سلباً «للدن» قد طردوا الإسلام بعيداً عن حظيرته،
وجعل الدين سمحاً باسمه بأسطاً ذراعيه لكل الناس لا احترام فيه
ولا احتكار. نعم، إن حاجة البشرية قد أصبحت متجهة إلى
هذا النмир العلوي الصافي من المبادئ البسيطة المستقيمة، التي لا
خداع فيها ولا تمويه ولا تناقض ولا تشويه ولا إخلال ولا تدخل
في قوانين الطبيعة الأساسية التي وضعها المبدع الأعظم. إذا تم
ذلك للإسلام في هذا العصر فلسوف يأتي يوم يقف فيه أهل
الأرض أجمعون من كل جنس ولون على أطام بلادهم يصيحون
في كل حول صيحة ذلك اليهودي:
«لقد طلع نجم أحمد!».

سر العظمة

ينبغي لمن أراد أن يعلم سر عظمة « محمد » أن يتخيل رجلاً وحيداً فقيراً تمكنت من قلبه عقيدة فنظر حوله فإذا الناس كلهم في جانب ، وإذ هو بمفرده في جانب . هو وحده الذي يدين بدين جديد بينما الدنيا كلها : أهله وعشيرته ، وبلده وأمته ، والفرس والروم والهند والصين وكل شعوب الأرض لا يرون ما يرى ، ولا يشعرون له بوجود . هذا موقف النبي ، وهذا موقف العالم : رجل عاطل من كل قوة وسلاح ، لإمضاء العزيمة وصلابة الإيمان أمام عالم تدعّمه قوة العدد والعدة ، وتوازره حرارة عقيدة قديمة شب عليها وورثها عن أسلافه ، واتخذت لها قرارة نفسه وأعماق تاريخه جذوراً ليس من السهل اقتلاعها على أول قادم . فالنبي هو ذلك القادم الذي يريد أن يقتلع تلك الجذور ويضع مكانها غرساً جديداً . والعالم القديم هو ذلك السادن القوي لتلك الشجرة العتيقة ، يذود عنها وتأتي كرامته أن يفرط في ورقة منها إذن « مبارزة » بين فرد أعزل وبين عصر بأسره يزجر غضباً : عصر زاخر بأسلحته ورجاله ، وعقائده وفقهائه وعلماؤه ومشاهيره ، وتقاليده وماضيه ، ومجده وتاريخه ... هذه المبارزة الهائلة العجيبة من يستطيع أن يقدم عليها غير نبي ... على أن المعجزة بعد ذلك ليست في مجرد التحدي ورمي « القفاز » وارتفاع ذلك الصوت

الضعيف على شاطئ ذلك البحر الطامى العجاج : « أن اترك أيها العالم دينك القديم واتبعني » . ذلك الصوت الذى لاجواب عليه إلا تخزية طويلة وقهقهة عريضة . . . وليست المعجزة كذلك فى مجرد شفاء الأصم وإبراء الأعشى ، إنها المعجزة حقيقة هى أن يخرج مثل هذا الرجل الوحيد الأعزل من هذه المعركة المخيفة ظافراً منتصراً ، فإذا هذا العالم العتيد كله يحشو عند قدميه منسكس الأسلحة وقد انقلبت تخزيته خشوعاً طويلاً ، وقهقهته صلاة عميقة . كيف ربح هذا الرجل الموقعة ؟ ما وسائله ؟ هل كانت له خطط وأساليب وقوة من شخصه مكنته من النصر ؟ أو أن الله هو الذى نصره دون أن يكون لشخصية النبي دخل فى الانتصار ؟ عقيدتى دائماً أن شخصية النبي لها أثر كبير .

وهنا معنى الاصطفاء ، فالله يختار من بين البشر عظيماً له كاهل يحتمل عبء الرسالة ، ويوحى إليه بالعقيدة ثم يتركه يجاهد فى سبيلها . فالنبي ليس آلة تحركها يد الله فى كل خطوة ، إنما هو رسول عهد إليه تبليغ دين والعمل على إذاعته بين الناس بالوسائل التى يراها الرسول كفيلة ببلوغ الغاية . فالله لا يريد نشر الأديان للبشر إلا بالوسائل البشرية . إنه لا يتدخل بقدرته العلوية فيفرض الدين فرضاً على الناس كما تفرض عليهم الزواجر والأمطار ، ولكنه يحب دائماً أن يخلى بين « الدين » وبين « الناس » حتى يتغلغل الدين من تلقاء نفسه فى نفوسهم بجمال نوره وحده ، ولكن أعين الناس

لا ترى كل الأحيان فهم يعيشون في أعماق ماضيهم كالأسماك العمياء في أغوار المحيطات . هنا تبدأ متاعب النبي ، وهنا تظهر المعجزة الحقيقية وهي إبراء الأعمى لا أعمى واحد ولكن ملايين العميان . فهو الذي يفتح أبصارهم على نور طالما جحدوا وجوده : نور الدين الجديد الذي أتى به . وهنا ينبغى التساؤل . كيف استطاع النبي أن يرى الناس ما يرى ، وأن يقنعهم بما جاء به؟ الجواب بسيط : حياة النبي وخلقه . إن الناس لا تقتنع بالكلام وحده . إنما يؤثر فيهم الفعل والمثل . إن الناس يوم أيقنوا أن محمداً لا يسعى إلى غنى ولا إلى ملك ، وأنه يريد أن يبقى فقيراً يشبع يوماً ويحجوع أياماً ، وأن كل تلك المخاطر التي يتعرض لها في كل خطوة ، وأن كل ذلك الهوان الذي يناله من سفهاء القوم وأكابرهم... وأن كل ذلك الجهاد ملأ به حياته بأكملها إنما هو سبيل « العقيدة » التي يقول لهم عنها ، منذ ذلك اليوم الذي اجتمع فيه كبراء أمته وعرضوا عليه ثروتهم ووعدوه أن ينصبوه عليهم ملوكاً على شرط أن يتركهم على دين آبائهم ، فرفض المال والمجد والسلطان ، وأبى إلا شيئاً واحداً صغيراً « أن يؤمنوا معه بفكرته » ، عند ذاك أدرك أولئك القوم جميعاً أن الأمر جد لا هزل ، وأنهم أمام رجل لا ككل الرجال ، وأن الآدمي الذي لا يغيره في الحياة شيء ، ولا يعيش إلا من أجل « فكرة » لا تقوّم بمتاع من أمتعة هذه الدنيا الرخيصة ، و « جمال » يضحي في سبيله خير ما في الحياة . أمام هذا الرجل أخذ الناس يفكرون

ملياً وثبت لمن كان قد ارتاب في أمره أن مثله لا يمكن على الأقل أن يكون أفاقاً يعمل للمغنم، إنما هو رجل صادق مخلص، لا مطمع له من تلك المطامع التي يسعى إليها الناس في هذه الدار. عند ذلك بدأ كثير من الناس يجلسون إليه ويصغون إلى كلامه.. فوسيلة النبي الأولى وخطوته التي نزل بها الميدان، هي إقناع هذا الخصم الصاحب من الخلق أنه مجرد عن الغايات الدنيوية. وهنا كانت قوته. [فإن أمضى سلاح في يد رجل يريد أن يقارع البشر، هو أن يواجهه البشر بيد خالية من مطامع البشر!]

ولكن هذا لا يكفي. فالناس قد تقتنع بأمانة النبي وقد تستمع إلى ما يقول، ولكنها لا تستطيع أن تنبذ في يوم وليلة كل ماضيها لتؤمن بهذا الكلام الجديد. إن صدر الجماهير كصدر المحيط العميق ذي الماء الكثيف، يدفع إلى سطح كل جسم غريب، ولا ينفذ إلى أعماقه إلا شيء ذو وزن، بعد زمن وجهد. وإن الناس لشديدة الحرص على ما تسميه كنوز تراثها وتقاليدها. فما أدرهم أن هذا الكلام الجليل الذي جاء به هذا النبي ذو الحديث الطلي ليس إلا بضاعة زائفة ووهما خلافاً لعب بلب هذا الرجل الأمين المسكين فريسة مرض ومس؟ ما هو الأجدر بهم عندئذ؟ يطلبون له الطب حتى يبرأ؟ أو يلقون بكنوزهم ويتبعون حلمه ومسه. لقد وضعت المسألة إذن وضعا آخر، واتخذت الحرب ميداناً جديداً. ماذا يصنع النبي؟ لا بد له من أن يبدد ضباب الشك الخيم على الأذهان حتى

يصل إليها نور الدين . هنا صفتان لازمتان : الصبر والمثابرة ، فإن العاقبة في الحرب لمن صبر وثابر . وإن أمامه خصما جديداً ، هو الشك الذي يقوم الآن في رؤوس الناس . فإن كان حقيقة رجلاً عظيماً فليقتل هذا الشك بمفرده . وما هو بشك رجل واحد ، إنما هو شك أمة طامية . ولقد جاهد الرسول فعلاً في كل لحظة من لحظات حياته ، إلى أن استطاع ذات يوم أن ينقل العقيدة التي في قلبه حارة قوية إلى قلوب الناس جميعاً . وهنا كان النصر الأخير تمت المعجزة . وتمكن هذا الرجل الواحد من أن يضع العالم في قبضته ، ويخضعه لفكرته ، ويطبعه إلى أبد الآبدين بخاتمته ، ويدخل إلى صدره أشعة نور جديد .

المرأة في شباب النبي

لم يرو لنا التاريخ أن النبي العربي عرف امرأة أو تحرك قلبه لامرأة قبل خديجة . فلقد كانت حياته حتى الخامسة والعشرين حياة الشباب الهادئ البعيد عن النساء ، العاكف على عمله ، يربى الغنم في القلاة ويذجأ إلى التأمل العميق . فلم يكن للهو والمرأة حتى ذلك الوقت مكان من اهتمامه أو تفكيره . كل ماورد مع ذلك من أخبار لهو الشباب ، أنه قال ذات ليلة لفتى من قریش كان معه بأعلى مكة يريعيان غنم أهلها : « أبصر لي غنمي هذه الليلة حتى أسمر بمكة كما يسمر الفتیان » ثم خرج . فلما جاء أدنى دار من دور مكة سمع غناء وصوت دفوف ومزامير . فجلس يلهو بذلك الصوت حتى غلبه النعاس فنام مكانه ولم يوقظه إلا مس الشمس ، ورجع . فسأله صاحبه : « ما فعلت » فأخبره بما كان . وكان هذا شأنه في كل ليلة من مثل هذه الليالي .

كانت العفة المطلقة إذن هي صفته الغالية وقتئذ وكان الزهد والحلم والصبر والتواضع ما ميزه عن بقية الشبان وما جعل قومه يسمونه « الأمين » . ما الذي كان يشغل رأس الشاب محمد في تلك السن ما دام للهو والمرأة لا محل لهما عنده ؟ أترأه كان يحس في قرارة نفسه بمصيره العظيم ؟ نعم إن هذا الفتى قد شب في عصر شاعت في جوه كهرباء غريبة مشحونة بالأساطير والتنبؤات عن قرب

ظهور نبي من العرب اسمه (محمد) وكان مصدر هذا النبا اليهود أهل الكتاب والكهان ، حتى لقد سارع من بلغه ذلك من العرب فسمى ولده محمداً طمعاً في النبوة فهذا الجو الذي نشأ فيه الصبي محمد والاسم الذي حمله والإشاعات التي أحاطت به عن ذلك النبي الموعود ، كل هذا كان كافياً من غير شك في أن يبعثه على التفكير في هذا الأمر منذ الصغر ، ولعله طمع هو أيضاً في أن يكون هو النبي الجديد . ولعل هذه الفكرة تملكته كيانه وطلعت على كل شبابه فلم تتسع حياته في ذلك الوقت لشيء آخر .

لقد كان هذا غالباً شأن أغلب أولئك الذين انتظرهم أقدار عظام وتمسكتهم منذ شبابهم مثل عليا وأحلام ، عمرت كل أعوام شبابهم وحلت فيها محل اللهو والمرح . **إن كل شاب يعيش مع شبح امرأة جميلة إلا الشاب الموعود برسالة عظمى فهو يعيش دائماً مع شبح المجد المنتظر** . لعل هذا يفسر لنا بعض الشيء حياة الفتى محمد حتى الوقت الذي لقي فيه أول امرأة أحبها : « خديجة » . وإنا لو تأملنا الأمر ملياً لتبين لنا أنه لم يكن البادية بالحلب . كل شيء يدل على أن الزواج لم يخطر له على بال ، والزوجة والمرأة آخر ما كان يفكر فيه وقتئذ ، فلقد كان يسير في طريق تأملاته الداخلية وأحلامه العليا وكأنه لا يمشي على هذه الأرض ، إلى أن لحظته خديجة ذات يوم ولمست كتفه فأفاق قليلاً ورفع عينيه إليها . نعم . إنها هي التي كانت ترقبه منذ زمن . **وإن لشعورها نحوه جذوراً**

ممتدة في أغوار قلبها امتداد عرق الذهب في المنجم العميق **﴿** ما مبدأ هذا الشعور ؟ لعله ذلك اليوم الذي احتفلت فيه نساء قریش بعيد لهن ، وكانت خديجة يبنهن عند وثن من الأوثان فبرز لهن أحد اليهود مناديا بأعلى صوته : « يانساء تباء . إنه سيكون في بلدكن نبي يقال له محمد ، فأما امرأة استطاعت أن تكون له زوجا فلتفعل . » فقدفته النساء بالحجارة وقبحنه وأغلظن له ، إلا خديجة فإنها أطرقت وكان شيئا وقع في نفسها من كلامه . ثم حدث بعد ذلك أن خديجة ، وقد كانت ذات مال كثير وتجارة تبعث بها إلى الشام وتستأجر من أجلها الرجال ، أرسلت الشاب « محمدا » في تجارتها وضاعفت له الأجر . فعاد رابحا ضعف ما كانت تربح التجارة على يد غيره ، لآماته واجتهاده . وقص عليها عندئذ غلامها « ميسرة » وقدرافق محمداً في رحلته مارآه من هذا الشاب المستقيم الأمين .

ولعله أخبرها فيما أخبر أن أحد الرهبان قابله ، وأنهما تذاكرا مليا في أمر النبي الموعود المسمى « محمداً » . كل هذا مع ما تشبعت به الأذهان من أساطير النبوة المنتظرة قد ألقى في روع خديجة أنها أمام شاب لا يبعد أن يكون هو النبي الموعود . فإذا أضفنا إلى كل هذا أن محمداً كان فتى في الخامسة والعشرين كريم الخلق جميل المنظر ، وأن خديجة كانت امرأة في الأربعين ، أدركنا أن مثلها كان لابد له أن يحب مثله . وهل يمكن أن نسمى هذا الشعور باسم آخر غير « الحب » ؟ ذلك الذي يدفع امرأة ذات

شرف و ثروة أن تبدأ هي الخطوة الأولى نحو فتى فقير يقيم؟ هي التي قد تقدم إليها أكرم رجال قریش نسباً وأعظمهم شرفاً وأكثرهم مالاً، طلبوها وبذلوا الأموال فلم تلتفت إليهم، وأرسلت تابعتها « نفيسة » دسيساً إلى الشاب « محمد » تعرض عليه يدها .

منع الحب إذن كان قلب « خديجة » . ولقد كان هذا الحب سامياً قوياً عظيماً فاستطاع أن يفتح قلب « محمد » وأن يملأه كل تلك الاعوام التي عاشتها خديجة بل إن هذا الحب لم ينطق به بموت خديجة ، ولقد ظل مكانهما من قلبه قائماً دائماً لم تستطع قط امرأة أن تزاحمها فيه . هذا هو حب « محمد » الأول . وتلك ناحية من نواحي الفضل المجهولة لم يذكرها الناس كثيراً لخديجة بما هي أهله من التكريم والتعجيل : إنها أول امرأة علمت « محمدًا » الحب .

جواهر الدين

كان عمر بن الخطاب شديدا في مراعاة أحكام الله .. حريصا على إقرار الأمن والأمانة بين الناس . فبينما هو يسير يوما في إحدى الأسواق ، إذا هو يرى رجلا يلتقط من الأرض لوزة ، ويرفعها في يده ، ويجرى بها في الطريق صائحا :

— من ضاعت له لوزة ؟ !

فما كان من عمر إلا أن انتهره قائلا :

— كلها يا صاحب الورع الكاذب ! ..

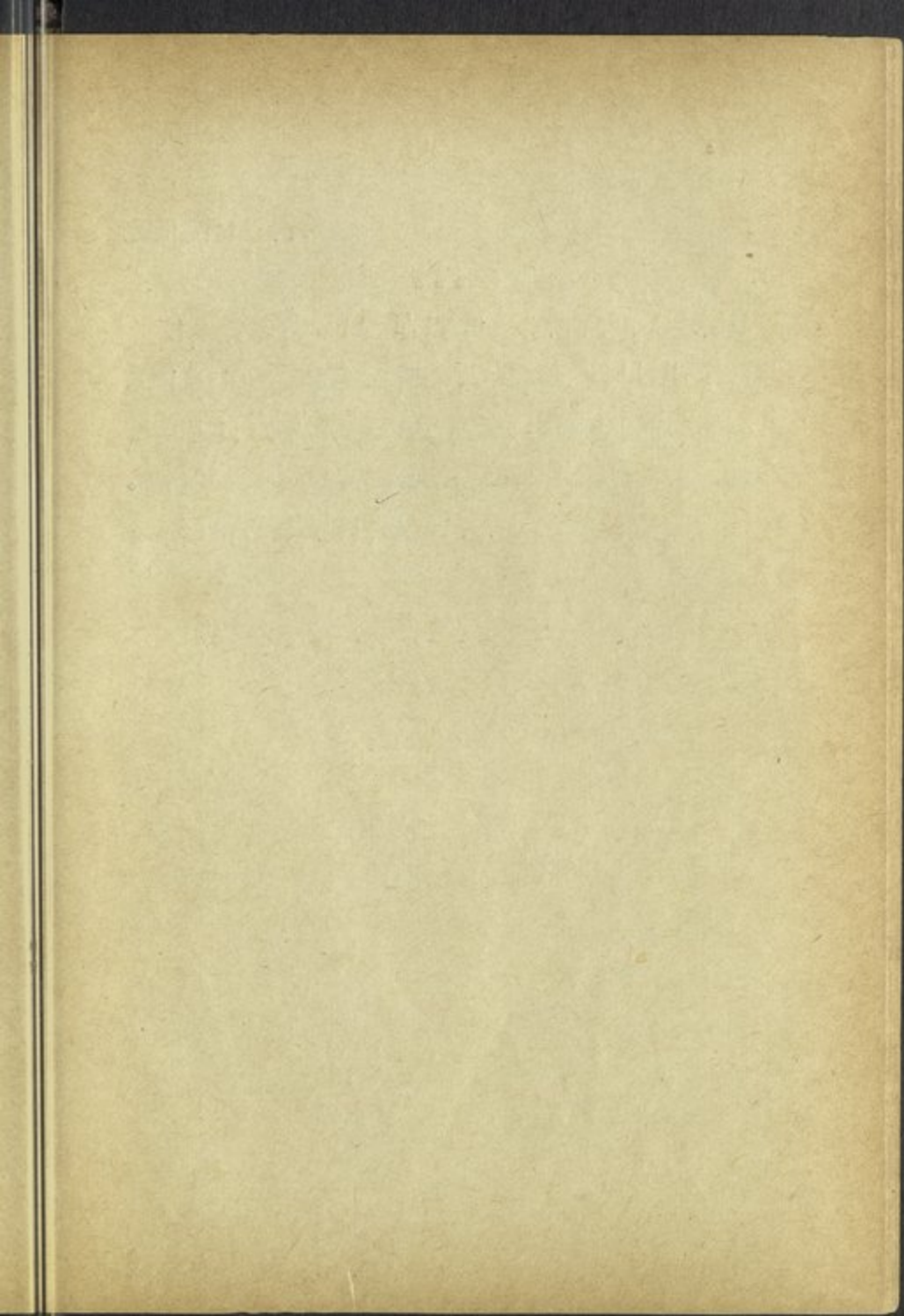
في الناس أيضا من يلتقط لفظة في كلام كاتب .. فيرفعها منعزلة عن نواياه ، مستقلة عن مراميه . ليندب ويولول صائحا : « ضاع الدين .. ضاع الدين ! » .. مثل هذا المتظاهر بالورع لا يفهم من الدين إلا ألفاظا .. ولا يدرك بأفقه المحدود ان الدين لا يخشى عليه من لفظة . كما أن الأمانة لا يخشى عليها من لوزة ! .. وأن الكتاب والشعراء في كل العصور ينتفعون بكل ما في الكتب القديمة من صور دون أن يرتاب في عقائدهم القاريء الحصيف ! ومن ذا الذي يستطيع أن يرمى بالوثنية شاعرا يناجي آلهة الشعر أو يرى في هتافه باله الحرب أو اله البحر شركا بالله الواحد الاحد الذي لا شريك له ؟ .. وإنما هي صور من الآداب القديمة

يستعيرها الشعراء والكتاب في أساليبهم ، دون أن يخطر في بالهم أن من الناس من يضيق عقله فيخلط بين الصورة الشعرية والعقيدة الدينية ! ..

ولكنني مع ذلك أحيي كل من بينهم جوهر الدين .. واثق الناس على أن يفخروا بالدين .. فإنني دائماً أومن أن الدين هو الذي رفع الإنسان فوق مرتبة الكائنات جميعاً .. فالدنك ليس بالمزية التي أختص بها الإنسان وحده .. والنظام الإداري المحكم أو الاقتصادى الكامل ليس وقفاعلى المجتمع البشرى .. فإن مجتمع النحل لأدق منا نظاماً فى الإدارة .. وإن مجتمع النمل لأتم منا أحكاماً فى الاقتصاد .. ولكن الذى يميزنا نحن الإنسان هو « الإيمان » .. ما من مجتمع غير مجتمعنا البشرى اهتدى إلى ذلك الإيمان الدينى .. لأن حياة الروح لم يلج بعد بابها غير الإنسان .. إذا أهدرت دينك أيها الإنسان فاعلم أنك قد أهدرت آدميتك .. وإذا خلعت رداءك الدينى ، فقد خلعت رداءك البشرى ، وانقلبت دابة تسعى إلى رزقها فى الأرض .. ولا تقوى على التطلع إلى السماء .. الدين هو الذى يرفع بصرك الى أعلى أيها الإنسان ... الى أعلى من أقدامك وأرضك وطعامك وشرابك ... وإذا استطعت أن ترفع بصرك إلى أعلى من فمك فأنت أرقى من الحيوان ... وإذا أرتفعت إلى حيث تدرك وجود « الله » فأنت

سيد الكائنات ...

كل شيء قد يعرفه الحيوان إلا «الدين» ... لو عرفت جماعة
من الحيوان يوما معنى الدين لأصبحت في الحال بشرا
ساجدين! ... ما من شيء نفخر به نحن آدميين إلا أننا نسجد
من أجل فكرة عليا ... وتتحمس من أجل معنى مقدس ...
وتعرف قلوبنا ما هو «الإيمان»! ...



في الأدب والفن والثقافة

الخلق

... لا ريب أن العقلية المصرية قد تغيرت اليوم بعض التغيير
 كيف تغيرت؟ هذا هو موضوع الكلام. إن شئنا الفكر في
 مصر حتى قبيل ظهور الجيل الموجود كانت مقصورة على المحاكاة
 والتقليد محاكاة التفكير العربي وتقليده. كنانى شبه إغماء، لاشعور
 لنا بالذات. لا نرى أنفسنا ولكن نرى العرب الغابرين. لا نحس
 بوجودنا، ولكن نحس بوجودهم هم. لم تكن كلمة «أنا» معروفة
 للعقل المصرى. لم تكن فكرة الشخصية المصرية قد ولدت بعد.
 حتى جاء الجيل الجديد فإذا هو أمام روح جديد، وأمام عمل جديد.
 لم يعد الأدب مجرد تقليد أو مجرد استمرار للأدب العربى القديم
 فى روحه وشكله، وإنما هو إبداع وخلق لم يعرفهما السلف، وبدأت
 الذاتية المصرية واضحة لافى روح الكتابة وحدها بلى فى الأسلوب
 واللغة أيضاً. لقد بدأنا نعى ونحس وجودنا، وأول مظاهر الوعى
 شخصية الأسلوب واستقلال طريقة التعبير وما يتبعها من ألفاظ
 وأخيلة. كل هذا أصبح اليوم جلياً معروفاً. ولم أكتب هذه
 الصفحات من أجله، فحاجة مصر إلى الاستقلال الفكرى أمر
 لا نزاع اليوم فيه، ولقد مضى الكلام فى هذا، إنما الأمر الذى
 يحتاج إلى كلام هو معرفة مميزات الفكر المصرى: معرفة أنفسنا
 حتى نتبين لجيلنا مهمته. لقد فهمنا مميزات الأسلوب والشكل، وما

لغيره
 من
 الأدب

التي
 المصرية

فهمنا بعد جيداً يميزات النفس والروح . ماهي يميزات العقلية المصرية في الماضي والحاضر والمستقبل ؟ ماروح مصر ؟ مامصر ؟ إن اختلاطنا بالروح العربية هذا الاختلاط كاد ينسينا أن لنا روحاً خاصة تنبض نبضات ضعيفة تحت ثقل تلك الروح الأخرى الغالبة ، وإن أول واجب علينا هو استخراج أحد العنصرين من الآخر ، حتى إذا ما تم تمييز الروحين أحدهما من الأخرى كان لنا أن نأخذ أحسن ما عندهما ، وكان لنا أن نقول للناس : « هانحن أولاء . قد أنرنا لكم الطريق الى أنفسكم فسيروا » .

لابد لنا إذن أن نعرف ما المصري وما العربي ؟ هذا السؤال ألقىته على نفسي منذ سنوات معدودة إذ كنت أطيل النظر في الفنين المصري والإغريقي ؟ . وأذكر أنني أثرت هذه المسألة أمام بعض الباحثين ، وأذكر أنني لخصت الفرق بين العقليتين بمثل واحد في فن النحت سائلاً : ما بال تماثيل الآدميين عند المصريين مستورة الأجساد وعند الإغريق عارية الأجساد ؟ هذه الملاحظة الصغيرة تطوى تحتها الفرق كله ، نعم كل شيء في مصر مستتر خفي عند المصريين عار جلي عند الإغريق ، كل شيء في مصر خفي كالروح وكل شيء عند الإغريق جلي كالمنطق ، في مصر الروح والنفس ، وفي اليونان المادة والعقل . نظرة أخرى في أسلوب النحت تدعم هذا الكلام . إن المثال المصري لا يعنيه جمال الجسد ولا جمال الطبيعة من حيث هي شكل ظاهر ، إنما تعنيه الفكرة ، إنه يستنطق الحجر

كلما وأفكاراً وعقائد. على أنه يشعر مع ذلك بالتناسق الداخلي، يشعر بالقوانين المستترة التي تسيطر على الأشكال، يشعر بالهندسة غير المنظورة التي تربط كل شيء بكل شيء، يشعر بالكل في الجزء وبالجزء في الكل، وتلك أولى علامات الوعي في الخلق والبناء. هذا كله يحسه الفنان المصري لأن له بصيرة غريزية أو مدربة تنفذ إلى ما وراء الأشكال الظاهرة لتحيط بقوانينها المستترة. فنان عجيب لا يصرفه الجمال الظاهر للأشياء عن الجمال الباطن. إنه يريد أن يصور روح الاشكال لا أجسامها، وما روح الشكل إلا القانون العام الأعلى المستتر خلفه. إن ولع المصريين بالقوانين الخفية لشئ يبلغ حد المرض، مرض إلهي، لو أن الآلهة تمرض لكان هذا مرضها: فرط البحث عن القانون!

كل شئ في مصر إلهي، لأن مصر التي منحها الطبيعة الخير واليسر وسهولة العيش وكفتها مشقة الجهاد في سبيل المادة استأقت منذ الأزل تتأمل ما وراء المادة... حظها في هذا حظ الهند: أمة كثير الخير كذلك دانية القطوف لا حاجة بها إلى الكفاح ولا عمل لها إلا استمراء ترف الحكمة العليا. انقطعت هي أيضاً من قديم تحت أشجارها المقدسة تبحث عما وراء الحياة.

مصر والهند حضارتان قاما على الروح لأنهما قد شعبتا من المادة، الإغريق على النقيض، أمة لم تشبع من المادة، أمة نشأت في العسر والفاقة. أرضها لا تدر من الخير إلا قليلاً. كان لزاما

عليها الكفاح في سبيل العيش وكان حتما عليها الجرى وراء المادة ،
 حرب تلو حرب ، وفتح بعد فتح ، وضرب في مشارق الأرض
 ومغاربها ، على هذا النحو لم يكن للاغريق ذلك الضمير المطمئن
 ولا ذلك الشعور بالاستقرار ، ولا ذلك الإيمان بالأرض الذي
 يوحى بالتفكير فيما وراء الأرض والحياة. إن عاطفة الاستقرار
 والإيمان عند المصريين ممزوجة بالدم ، لأن المصريين نزلوا من
 بطن الأزل إلى أرض مصر ، لا يعرف لهم نسب آخر على وجه
 التحقيق واختلاف العلماء في أمر أصلهم لم ينته بعد ، وفي كل يوم
 يبدو دليل على أن العمران والاستقرار وجد في مصر قبل التاريخ
 المعروف ، ولقد ظهرت الحضارة المصرية في التاريخ تامة كاملة
 دفعة واحدة ، كما يظهر قرص الشمس في الأفق عند الشروق .
 ولقد قال سولون : إن السكينة المصريين يعنون العناية كلها بذكريات
 تلك القارة العظيمة ذات المدينة الزاهرة التي ابتلعها المحيط قبل
 مبدأ التاريخ : « قارة الأتلانتيد » أترى كانت الحضارة المصرية
 استمراراً لتلك المدينة المندثرة ؟ ... لم يبق دليل . على كل فرض مصر
 أمة مستقرة مؤمنة ، زهدا عمرها الطويل وخيرها الكثير في مبادئ
 الحياة ، وهذا الزهد والتفكير فيما وراء الحياة ظهر أثرهما على وجه الفن
 المصري ، ولا شيء يدل على عواطف أمة وعلى عقليتها مثل فنها .
 فلقد طالع العالم الحديث على وجه الفن المصري الصرامة والجد
 والعمق ، ولا أكاد أفتح كتابا في الفن المصري حتى أجد كلمة

« الصرامة » نعنا من نعوت هذا الفن ، ولا أفتخ كتابا في الفن الاغريق إلا وجدت كلمة « الحياة » وكلمة « الانسانية » من نعوت هذا الفن . نعم ، الحياة هي كل شيء عند الاغريق ، قد يدفعهم حب البحث إلى لمس حدود الحياة الأخرى فيلبسونها بالعقل والمنطق لا بالقلب والروح . فلسفتهم فلسفة العقل والمنطق والحياة . فلسفة الحركة لا فلسفة الكون . عند مصر والهند السكون وعند الاغريق الحركة ، قرأت حديثا « المقبرة البحرية » لـ « بول فاليري » وهو المتصل اتصالا مباشرا بالفلسفة اليونانية فاذا هو يشير في قصيده إلى الحركة والسكون ، وإذا الحركة عنده من خصائص الكينونة الواعية الفانية والكون من خصائص العدم الخالد غير الواعي ، وهو يعارض زينون الألياني في إنكاره للحركة ، ويتغنى في آخر القصيدة بانتصار الحركة أي الحياة على قصرها وفنائها ، فهو في ذلك لم يخرج عن يونانيته المكتسبة . ولم يفهم رأي روح مصر والهند ! ولم يشرف على ذلك العالم الخالد غير الواعي ، فإن دون هذا الاشراف والاتصال والتجرد التام من كل عقل آدمي أو منطق بشري . هذه هي الصعوبة في فهم مصر والهند ، وهذا ما جعل الفن المصري سرًا مغلقًا حتى أوائل هذا القرن ، وما صرف الناس إلى دراسة اليونان وحدها ؛ فهي واضحة لمعنى يسيرة المنال ، لأنها لزمّت شاطئ الحياة .

حظ الإغريق في كل هذا حظ العرب أيضا أمة نشأت في

فقر لم تعرفه أمة غيرها ؛ صحراء فقراء ، قليل من الماء يشير الحرب
والدماء . جهاد وكفاح لا ينقطعان في سبيل العيش والحياة . أمة
لاقت الحرمان وجها لوجه ، وما عرفت طيب الثمار وجرى الأنهار
ورغد العيش ومعنى اللذة إلا في السير والأخبار . كان حتما عليها
ألا تحس المثل الأعلى في غير الحياة الهنيئة ، والجنات الخضراء ،
والماء الجاري ، وألوان النعيم واللذائذ التي لا تنضب ولا تنتهي .
أمة بأسرها حلت بلذة الحياة ولذة الشبع ، فأعطاهم ربها اللذة
ومنحها الشبع . كل تفكير العرب وكل فن العرب في لذة الحس
والمادة ، لذة سريعة منهومة محتطفة اختطافا ، لأن كل شيء عند
العرب سرعة ونهب واختطاف . عند الإغريق الحركة ، أي الحياة ،
وعند العرب السرعة ، أي اللذة . لم تفتح أمة العالم بأسرع مما فعلت
العرب ، ومن العرب بحضارات مختلفة فاختطفوا من أطايبها
اختطافاً ركضاً على ظهور الجياد ، كل شيء قد يحسونه إلا عاطفة
الاستقرار . وكيف يعرفون الاستقرار وليس لهم أرض
ولا ماض ولا عمران ! دولة أنشأتها الظروف ولم تنشأ الأرض ،
وحيث لا أرض فلا استقرار ، وحيث لا استقرار فلا تأمل ،
وحيث لا تأمل فلا ميتولوجيا ولا خيال واسع ولا تفكير عميق
ولا إحساس بالبناء لهذا السبب لم تعرف العرب البناء ، سواء في
العمارة أو في الأدب أو في النقد ، الأسلوب العربي في العمارة من
أوهى أساليب العمارة التي عرفها تاريخ الفن وإذا عاش لليوم فإنما

للمرء
والنهي

يعيش بالزخرف ، فن الزخرف العربي هو الذى أنقذ العمارة العربية ، إن العمارة العربية — إلا فى مصر — ما هى فى رأى سوى زخرف لا بناء ، فلا أعمدة هائلة ولا جهة عريضة ولا وقفة ولا بساطة عظيمة ولا روعة عميقة ، إنما هى وشى كثير وجمال كجمال الحلى المرصع يبهى البصر ولا فكر خلفه . أما فن الزخرف العربى هو الذى أنقذ العمارة العربية ، إن العمارة العربية — إلا فى مصر — ما هى فى رأى سوى زخرف لا بناء ، فلا أعمدة هائلة ولا جهة عريضة ولا وقفة قوية ولا بساطة عظيمة ولا روعة عميقة ، إنما هى وشى كثير وجمال كجمال الحلى المرصع يبهى البصر ولا فكر خلفه . أما فن الزخرف العربى فهو فى الحق أجمل وأعجب فن للزخرف خلده التاريخ . والزخرف عند العرب وليد ذلك الحلم باللذة والترف ، كل شئ عند العرب زخرف . الأدب نثر وشعر لا يقوم على البناء ، فلا ملاحم ولا قصص ولا تمثيل ، إنما هو وشى مرصع جميل يلذ الحس ؛ « سيفساء » اللفظ والمعنى ، و « آرابسك » العبارات والجل . كل مقامة للحريرى كأنها باب لجامع المؤيد ، تقطيع هندسى بديع وتطعيم بالذهب والفضة لا يكاد الإنسان يقف عليه حتى يترنخ مأخوذاً بالبهرج الخلاب . كذلك الغناء العربى « آرابسك » صونى ، فلا مجموعة أصوات متسقة البناء كما فى « الديتيرامب » أو « الأوركسترا » الإغريقية أو كما فى « الكورس » الجنائزى المصرى . ولا حتى مجرد صوت ينطلق حراً بسيطاً مستقيماً .

إنما هو صوت يحمل بألوان المحسنات من تعاريج وانحناءات والتواءات وتقاسيم كأنها (ستالاكتيتات) غرناطية، لا يكاد يسمعه (القاضي الفاضل) حتى يستخفه الطرب ويضع نعله فوق رأسه. كان هذا في العهد الأول للموسيقى إذ كانت عند جميع الشعوب بسيطة عارية تخرج من القلب تعبيراً عما في القلب، أو رمزاً لفكرة من الأفكار. والموسيقى كالعمارة من الفنون الرمزية لا الفنون الشكلية. ولكن العرب لا يحبون الرموز، ولا طاقة لهم بالفن الرمزي، ولا يريدون إلا التعبير المباشر بغير رموز، إلا الصلة المباشرة بالحس، فجعلوا من الموسيقى لذة للأذن لا أكثر ولا أقل، كما جعلوا العمارة لذة للعين لا أكثر ولا أقل. ولقد حاول الفارابي فيما أذكر التقريب بين الموسيقى العربية والموسيقى الإغريقية، وكان لابد له من الاختفاق لأسباب قد أذكرها بعد. كذلك التصوير العربي على جماله ودقته ليس إلا مجرد تزيين وزخرف للكتب والمخطوطات ولم يؤد لغير تلك الغاية «المنياتور» الفارسي. قد يكون للدين دخل في تأخر النحت والتصوير عند العرب، غير أنني أعتقد في براءة الدين، فإن العرب كانوا دائماً ضد الدين كلما وقف الدين دون رغبات طبائعهم، لقد حرم الدين الشراب، فأحلوا هم الشراب في قصور الخلفاء، وما وصفت الخمر ولا مجالس الخمر في أدب أمة بأحسن مما وصفت في الأدب العربي. لا شيء في الأرض ولا في السماء يستطيع أن يحول بينهم وبين اللذة. أما النحت أو التصوير

الكبير فليس في طبيعتهم لأن تلك الفنون تتطلب فيمن يزارها إحساساً عميقاً بالتناسق العام مبناه التأمل الطويل، والوعى الداخلي للكل في الجزء وللجزء في الكل، وليس هذا عند العرب. فهم لا يرون إلا الجزء المنفصل وهم يستمتعون بكل جزء على انفراد. لا حاجة لهم بالبناء الكامل المتسق في الأدب، لأنهم لا يحتاجون إلا للذة الجزء واللحظة. قليل من الكتب العربية في الأدب يقوم على موضوع واحد متصل، إنما أكثر الكتب كشاكيل في شتى الموضوعات تأخذ من كل شيء بطرف سريع. من حكمة وأخلاق ودين ولهو وشعر ونثر ومأكل ومشرب وفوائد طيبة ولذة جسدية، وحتى إذ يترجمون عن غيرهم يسقطون كل أدب قائم على البناء، فلم ينقلوا ملحمة واحدة ولا تراجيديا واحدة ولا قصة واحدة. العقلية العربية لا تشعر بالوحدة الفنية في العمل الفني الكبير، لأنها تتعجل اللذة، يكفيها بيت شعرواحد أو حكمة واحدة أو لفظ واحد أو نغم أو زخرف لتمتلىء طرباً وإعجاباً. لهذا كله قصر العرب وظيفة الفن على ما نرى من الطرف الدنيوى وإشباع لذات الحس حتى الحكمة، وشعراء الحكمة كانوا يؤدون عين الوظيفة: إشباع لذة المنطق، والمنطق جمال دنيوى. ولا أستغرب غضب نيتشه على إيريوييد لاسرافه في هذا المنطق على حساب الموسيقى. من المستحيل إذن أن نرى في الحضارة العربية كلها أى ميل لشؤون الروح والفكر بالمعنى الذى تفهمه مصر والهند من كلتى الروح

والفكر، إن العرب أمة عجيبة، تحقق حلها في هذه الحياة، فتشبهت به تشبث المحروم، وأبت إلا أن تروى ظمأها من الحياة، وأن تعب من لذاتها عبا قبل أن يزول الحلم وتعود شقاء الصحراء، وقد كان. إن موضع الحضارة العربية من «سانفونية» البشرية كموضع «سكيرتزو» من سائفونية يتهوفن. نغم سريع مفرح لذيد!!

* لا ريب عندي أن مصر والعرب طرفا تقيض: مصر هي الروح، هي السكون، هي الاستقرار، هي البناء. والعرب هي المادة، هي السرعة، هي الطعن، هي الزخرف!

مقابلة عجيبة: مصر والعرب وجهان الدرهم، وعنصر الوجود! أي أدب عظيم يخرج من هذا التلقيح! إنى أو من بما أقول، وأتمنى للأدب المصري الحديث هذا المصير: زواج الروح بالمادة، والسكون بالحركة، والاستقرار بالقلق، والبناء بالزخرف! تلك يتابع فكر كامل ومدنية متزنة لم تعرف البشرية لها من نظير. إن أكثر المدنات يميل إما إلى ناحية الروح، وإما إلى ناحية المادة.

حضارة واحدة قيل إنها استطاعت في وقت ما هذا المزج بين الروح والمادة وهذا الإيزان بين عنصري الوجود، تلك حضارة الإغريق. نعم أعود فأرد إلى أمة الإغريق اعتبارها، وأعترف أنى عندما وضعتها في كفة المادة كنت متأثراً ببعض الشيء بكلام «تين» و«تين»، عقل خلاب لكنه عقل. والعقل وحده بعيد

الروح
تتصل بال
المادة

عن فهم الجانب الروحي للمدنيات. ما هداني إلى الحق إلا القلب..
 إلا طول تأمل في جهة « البارتيون » . من دماغ ذلك الجواد
 الذي خلقتة يد « فيدياس » ، فوق هذا المعبد خرجت أفكار توحى
 إلى بأن أولئك القوم كانوا أعمق مما نظن ، وكانوا يشعرون بشيء
 آخر غير مجرد المادة الظاهرة ، وما لبثت « ميلبومين » أن جاءتني
 ببينة أخرى ، وتأملت قليلا فرأيت القناع قد كشف وذكرت
 من فوري أن أصل الاغريق جنسان مختلفان : اليونيون القادمون
 من آسيا المعروفون عند الهنود باسم « اليافاناس » أى عباد « يونا »
 والدوريون الحريسون البرابرة الهابطون من الشمال ، وآله
 اليونانيين هو (ديونيزوس) وآله الدوريين هو « أبولون » .
 وها هنا تفسير الاغريق : في هذا الصراع بين ديونيزوس رمز
 الروح والقوى الخفية الشائعة والنشوة ... وبين أبولون رمز
 الفردية والشخصية المفروزة والوعى ، صراع بين الروح والمادة
 وبين القلب والعقل ، وبين النشوة والوعى ، ديونيزوس إله أسوي
 فيما يخيل إلى ، جلب من الهند بلا مرء فغدا في اليونان ينبوع
 الموسيقى . لهذا السبب قدرت إخفاق الفاراني . فان الموسيقى
 العربية وليدة عقل واع ، لأن العرب أمة الفردية والوعى والمنطق
 العقلي والظاهر المحسوس ، إن العرب من عباد أبولون وهم لا يشعرون
 إن العرب لا يمكن أن يفهموا ديونيزوس ، تلك النشوة الدينية
 الجارفة التي تخرج صاحبها من سيطرة العقل والوعى كي تصله

مباشرة بالطبيعة. إن أغاني عباد « باكوس » الحماسية في الغابات ومزامير الـ « ساتير » لشئ بعيد إدراكه على العقلية الفردية ، شعور الانسان في لحظة أنه انقلب مخلوقاً له جسم جواد ورأس رجل أو رأس رجل وأرجل ماعز . هذا الاتحاد بين الحيوان والانسان إحساس ليس له مثيل إلا عند المصريين القدماء ، هذا التلاقى بين الأنواع وبين القوى في مخلوق واحد لهو عند الأولين بقية ذكرى تلك المخلوقات إلهية البائدة التي كانت تحكم الأرض قبل ظهور الانسان... مخلوقات لاهى من الاناث، ولاهى من الذكور، لاهى من الحيوان، ولاهى من الانسان. لأن الاجناس والفصائل لم تكن قد فرزت . كذلك « الساتير » فى المتيولوجيا الاغريقية رمز للانسان الأول ذلك الانسان الدانى من الحيوان القريب من الآلهة، يدنو من الحيوان بغريزته الجنسية المتبقطة ينبوع القوة الخالقة عن الاغريق والهنود كماهى عند المصريين ، ويقرب من الآلهة بغريزته الروحية المتصلة بقوى الطبيعة الالهية ، فهو ما زال يحتفظ بقبس من الحكمة العليا بدون أن يشعر ، وبيريق من ذلك النور الروحى والالهام الذاتى يرى به كتلة الزمن من ماض وحاضر ومستقبل فى شبه لحظة واحدة .

تلك القدرة الخفية هى حاسه بائدة كانت للانسان الأول ، وفقدناها اليوم ، نعم فقدنا كل القوى الروحية التى منحتنا إياها الطبيعة يوم كنا نحبا وتصل بها ، ولم يبق لنا اليوم إلا العقل المحدود

والمنطق القاصر. وهانحن أولاء اليوم في هذا الكون الهائل مخلوقات منفردة منبوذة ! أين ذهب ديونيزوس ؟ وهل يبعث من جديد ؟ وإذا بعث فهل يجد من يعرفه في هذا العصر ذى الحضارة المادية الفردية ؟ !

رجل واحد ما زال يذكر هذا الآله ويستطيع أن يعرفه إذا ظهر كما عرف غاليلاس (١) أصحاب الكهف !! وهو وحده كذلك يستطيع أن يستقبله باسم هذا العصر ؛ هذا الغاليلاس العصري هو : « تاجور » ! إنه يتكلم كثيراً عن ذلك الاتحاد بين الإنسان والطبيعة وعن ذلك الفاصل المرفوع بين الحياة الخاصة وبين الحياة العظمى التي تحترق الكون . وعن ذلك الحب بين الإنسان والجماد . هذا كلام جميل لكن هل تراه يشعر بحقيقته ؟ يخيل إلى أن تلك الحقائق قد انطوت بانقضاء دولة الاغريق . بل لقد انقضت قبل أن تنقضى دولة الاغريق . انقضت بطغيان منطق سقراط على روح هوميروس انقضت بطرد ديونيزوس من تراجيديات إيرويد (غصبة نيتشه المعروفة) ، انقضت بغلبة الإحساس الفعلي على الإحساس الروحي ، انقضت بانتصار «أبولون» في النهاية على «ديونيزوس» . وهكذا اختل التوازن، ورجحت كفة المادة ، وانطفأت الحضارة الإغريقية إلى الأبد . ولم ترث أوربا منها غير كنوز العقل والمنطق ، وبقيت

(١) أحد أبطال قصتي أهل « الكهف »

في الظلام كنوز ديونيزوس الخفية .

لم تنجح اليونان إذن النجاح المطلوب في تطعيم الروح بالمادة
فهل تأمل مصر بلوغ هذه الغاية يوماً ؟

دمهور في مايو عام ١٩٣٣ من رسالة إلى طه حسين .

النقد

... نحن متفقان ، ولا خلاف بيننا في الغاية . وهو مطلبنا .
هنالك تفاصيل أفرق فيها عنك ولن أعود إليها فأنا أفرع من
النظر إلى وراء ، خشية أن أتحوّل إلى تمثال من الملح ، أو حتى إلى
تمثال من الذهب . . . نفسى تصدف أحياناً عن الفكرة الجامدة مهبها
تسكن خالدة ، ويحاول لي أحياناً أن أثير الأفكار عابثاً من نافذة
قطار . إن رسائلنا في حقيقتها لا تعنى أكثر من إضاءة الغبار في
أرض نائمة مفروشة بالحصى . لسنا نصدر أحكاماً بهذه الكتب
السريعة . إنما نحن نطرح مسائل ونلقى بفروض سوف يلتقطها
ويجمعها الباحثون المنقطعون يوم تستيقظ الأجيال . اتفقنا إذن .
أو ينبغي لنا أن نتفق على أى حال حتى ننصرف إلى شيء جديد .
إن البحث عن الجديد هو الخلق عندى بالمجهود . ولقد فتح لنا
اليوم باب الجديد صديقنا « أحمد أمين » . قال لي ذات مساء إنه
يود لو يضع كتاباً في أصول النقد . النقد ؟ لفظ رن في أذنى .
وذكرت للفور أن رسالتى السابقة إليك كان موضوعها « الخلق » .
وقلت في نفسى ما يمنع من إتمام الكلام في رسالة ثانية يكون
موضوعها « النقد » ، وإذا الأمر ينكشف لى عن قضية كبيرة : أنعد
النقد كالخلق خاضعاً لسلطان التيارات الفكرية الثلاثة التى ذكرتها
في ردك : التيار المصرى القديم ، والتيار العربى ، والتيار الأوربى ؟

أم نعد النقد كالعلم لا يخضع لمثل هذه المؤثرات؟ أما أنا فلن أجيب من فوري عن هذا السؤال . فأنا أكتب ولا أدرى أين يحط بي القلم . دعني أولاً أنشئ . على هذا النغم بعض « تقاسيم » دون أن أعني الآن بالغاية . إن الغاية أحياناً رخيصة بجانب الوسيلة ، على الأقل في نظر الفن . لأن الغاية في الفن لا تبرر الوسيلة . الحياة كذلك تلك القطعة الفنية التي أبدعها الخالق ، أي شيء غير وسيلة متينة التكوين ؟ ألهما معنى غير ذلك الطريق المبين الذي أوله ضباب وآخره ضباب ؟ خط هندسي رسم على لوح الوجود ، كيف ابتداء ، كيف انتهى ؟ لا يعني ذلك علم الهندسة . إنه خط بين نقطتين وكفى . ليس لنا أن نسأل عن غاية الحياة ، ولا عن غاية الفن ، ولا عن غاية العلم . إن الغاية لا تهم . إنما المعنى كله في الوسيلة . الحياة هي الطريق ، العلم هو الطريقة ، الفن هو الأسلوب . أما الغاية فلا غاية . وهل يرتجى من العلم أو من الفن أو من الحياة غاية مطلقة يوماً من الأيام ؟ محال . ما نحن إلا أسلوب الخالق . ما الكون إلا أسلوب . الأسلوب كل شيء عند كل خالق وفي كل خلق . إن الخالق أعظم من أن يحبس إرادته الخالدة في حدود « غاية » : لفظ يدل بذاته على معنى الانتهاء . في اعتقادي أن كلمة « غاية » هي من صنع العقل البشري الصغير . هذا العقل المحدود الذي يضع كل شيء دائماً داخل حدود ، ويأبى إلا أن يكون لكل شيء أول وآخر . إنما الخلود في الأسلوب . لأن الأسلوب لا أول له ولا

آخر، فهو شيء كائن دائماً لا علاقة له بالزمن . إن رجل الفن ، وهو المقلد الأصغر للبدع الأكبر ؛ يدرك أن الفن لا يعيش بالغاية . لأن الغاية فانية كاسمها . وإنما يعيش الفن بالأسلوب . لقد انقضت الغاية من تشييد الأهرام ، وفنيت الغاية من بناء البارتيون . دفن الموتى أو عبادة الآلهة الغابرين غاية قد ماتت ، وبقي أسلوب الفن وحده خالداً في الأهرام والبارتيون . خدمة الإنسانية غاية العلم في نظر البسطاء ، ولو سئل عالم في ذلك لابتسم : « مالى وللإنسانية ! إنما أنا أبحث عن سر أسلوب الصانع الأعظم . إنما هي لذة البحث في ذاتها . إنما هي طريقة البحث وأسلوبه . ولولا ذلك السرور الذى يملأ نفسى إذ ينكشف لعمى الباحثة عن جمال أسلوب الله لما تجشمت جهداً في سبيل العلم ، ولما كان للعلم هذا المعنى الرفيع » . المخترعات كذلك ليست غاية العلم . هي تطبيق للعلم إنما العلم هو البحث الخالص المجرد عن كل غاية وعن كل استغلال . لقد كان الإغريق يبحثون ولا يطبقون . فيثاغورس مثل من أمثله الأسلوب الخالد للعلم الخالص . الأسلوب إذن هو محور النقد كما هو عماد الخلق ، وكلية الأسلوب رجة عميقة كالبحر ، في جوفها كل كنوز المعرفة التى يصبو إليها البشر ، ولعل كل ما أوتيه الإنسان من سليقة سامية منذ أول الأزمان ليس إلا انعكاس أسلوب الخالق في نفس الإنسان . هذا المنطق الذى نشأنا عليه ، ورجع إليه في كل حياتنا ، هذا الإحساس بالنتيجة والسبب ، هذا الشعور بالتناسق

والتناسب ، هذا الإدراك للصلة التي تربط الشيء بالشيء ، من أين جاءنا هذا نحن البشر ؟ أهناك مصدر آخر غير أسلوب الخالق فتحت البشرية عينها فآلفته حولها ، فهو موجود قبلها وقبل الخليفة كما يوجد الرسم والتصميم قبل البناء إن أسلوب المبدع في صنع الخليفة هو وحده المنبع الأزلي لهذه الصفات كلها : المنطق ، ارتباط السبب بالنتيجة ، والشيء بالشيء ، والجزء بالكل ، والتناسق والتناسب . صفات هي بعينها صفات الأسلوب السليم لكل عمل فني عظيم أسلوب الله هو المعلم الأول والآخر . وما أول صورة رسمها الإنسان على الأحجار وعظام الحيوان سوى إعلان شعوره الخفي بتلك الصفات . إن رجل الفن الأول هو أول إنسان عرف « المنطق » صفة فنية بعد أن كان المنطق سليقة سامية تسبح في أنحاء نفسه ولا يعرف ما هي . إن المنطق الذي شيد الأهرام لهو صورة محكمة للمنطق الذي شيد الكون . ما المنطق ؟ ما معنى المنطق ؟ مره في تلك المراة العظيمة الصافية التي تحيط بنا كالجدران : الوجود ، أجل مثال للمنطق في الأسلوب ينبغي لرجل الفن والأدب والعالم أن يطيل فيه النظر . كل شيء في هذا الوجود مصنوع على طريقة واحدة وعلى قاعدة واحدة . ما القاعدة التي بنى عليها الوجود ؟ هي القاعدة التي بنيت عليها الأهرام . هي قاعدة كل بناء : التماسك بين الأجزاء في كل واحد منسق . هذا التماسك ما علمته وكيف يكون ؟ قانون أستطيع أن أفرغه كما يفعل الرياضيون في صيغة بسيطة من لفظين :

«الأخذ والعطاء». كل شيء في هذا الوجود يحيا على نمط واحد. وكل حياة في هذا الوجود لها مظهر واحد. أخذ وعطاء في حركات متصلة متشابهة^(١): زفير وشهيق عند الإنسان والأحياء، اكتساب وإشعاع عند النجوم والأشياء، الأخذ والعطاء قانون التماسك والاتصال في حياة الفرد والمجتمع والأمة والأمم. وفي حياة الأخلاق والسياسة والاقتصاد، وفي حياة المادة والروح، وفي حياة الأرض والأجرام والسدم ليس في الوجود شيء لا يأخذ ولا يعطى. ليس في الوجود شيء يعطى ولا يأخذ كل شيء يعتمد على كل شيء في هذا الكون. بنيان مرصوص يشد بعضه بعضا، وكل خلق بنيان، ولا بنيان بغير وحدة شاملة، ولا وحدة شاملة بغير تضامن بين الحجر والحجر، وبين الجزء والجزء. يتساءل هنري بونكاريه في كتابه «قيمة العلم»: «أبحق لنا أن نتسكلم في سبب ظاهرة من ظواهر الكون مادام كل جزء من أجزائه متصلا بكل جزء برباط التضامن؟ إن أية ظاهرة من الظواهر لن تكون نتيجة سبب واحد، بل نتيجة أسباب غير متناهية في العدد. إن أية ظاهرة مهما يكن شأنها ليست في الغالب إلا نتيجة لحالة الكون كله في لحظة سلفت». فالكون كله إذن إن هو إلا إناء واحد صنعته يد واحدة من عناصر متألفة، وهذا التآلف أو التضامن إنما هو وليد ذلك

(١) تعريف شخصي للحياة، أدنى الصيغة بالقياس إلى تعريف «كاود برنارد» العالمي للصيغة.

القانون : « الأخذ والعطاء » : ليس هذا كل المنطق في صنع الوجود إنما المنطق تركيب ذلك القانون . ما قوام الأخذ والعطاء ؟ هل يكون أخذ وعطاء إلا بين كائنات متشابهات ؟ ما الحال لو أن الخالق أبدع وجوداً آخر على أسلوب آخر ، فصنع أناساً يعيشون بالزفير ولا ينفون الشهيق ، ومخلوقات تأكل ولا تصرف ، وأجراماً تكتسب الحرارة والضوء ولا تشع ؟ أى اتصال يمكن أن يقوم بين كائنات خلقت على غير أسلوب واحد ؟ لا اتصال ، وحيث لا اتصال لا بناء . لا خلق ولا بناء إذن في الدكون أو في الفن بغير وحدة الأسلوب . كذلك في مادة الأجزاء ، هل يقوم أخذ وعطاء بين أجسام لا تتحد في مواد البناء ؟ أى اتصال بيني وبين أخى وانى لو أن الخالق صنعني من عناصر غير عناصرها فجعلني من يابس ورطب وجعلهما من نور ونار وغاز وبخار ؟ أى ارتباط لو أنه جعل كل مخلوق منفرداً بمادته وهيئته وعناصره عن كل مخلوق ؟ أى هرم يمكن أن يشيد بأحجار ، أحدها من صخر ، وآخر من عجين ، والثالث من ورق ، والرابع من طين ؟ لا ارتباط بغير تشابه وتماثل . ولا تضامن بين أجزاء غير متجانسة في التركيب . إن كل ما نحس وجوده يتحد معنا في بعض العناصر . بغير هذا ما كنا نعترف له بوجود . إنا نعرف الأجرام لأن أجسامنا نعرف الحرارة والضوء والحديد . التشابه إذن هو شرط الأخذ والعطاء . الاختلاف كذلك شرط آخر . وهل يقوم أخذ

وعطاء. إلا بين كائنات مختلفة؟ ما الحال لو أن الخالق صنع كل شيء ككل شيء، فجعل كل رجل ككل رجل وكل جرم ككل جرم؟ طبع واحد، ومنظر واحد، وحجم واحد.. أليس هذا التشابه المطلق ينفي الشخصية؟ وحيث لا شخصية فلا أخذ ولا عطاء، ولا تماسك ولا اتصال، وهل من صلة بيني وبين غيري إلا لاختلاف شخصه عن شخصي وما عنده عما عندي؟ وهل رابطة الأجرام إلا اختلافها في الأحجام؟ الجاذبية الحب، هل علتها إلا اختلاف النسب في القوى والأشكال؟ إن مثل هذا السكون المماثل لا يمكن كذلك أن يشيد أو يوجد. مثله مثل قصة تمثيلية أشخاصها لهم عين الاسم والجسم والطبع والحظ يتكلمون عين الكلام، ويتحركون عين الحركات ويتصرفون عين التصرفات! أي علاقة يمكن أن تنشأ بين هذه المخلوقات؟ وهل يشعر أحدهم بوجود الآخر؟ وهل يدرك أحد منهم معنى كلمة «أنا»؟ لا بد من بعض الاختلاف بين الكائنات حتى يتميز كل كائن من الآخر ومتى تميزت الأشخاص والأشياء والأجزاء نشأ بينها الأخذ والعطاء، سر التماسك في كل بناء.. ها هنا إذن قوام التماسق: «التشابه لا كل التشابه، والاختلاف لا كل الاختلاف» (بيتهوفن هو الذي كشف لي منذ سنوات عن سر التأليف بين صوتين في عين الوقت. فقد لحظت أنه يجمع بين صوتين متشابهين لا كل التشابه مختلفين لا كل الاختلاف. وأدركت ألا تماسق بغير

هذا . فلو أنه جعل الصوتين متشابهين كل التشابه لفنى أحدهما في الآخر ، وما ميزنا شيئاً غير صوت واحد . ولو أنه جعلهما مختلفين كل الاختلاف لاستحال على الأذن أن تصل بينهما وهما متباعداً متنافران . فأساس « التناسق » في الموسيقى والفن كأساس التناسق في الحياة والسكون : ائتلاف بين الأجزاء لا كل الائتلاف ، واختلاف بينهما لا كل الاختلاف

جملة القول عندى أن أسلوب الله في صنع السكون هو وحده منبع الفن ، هو وحده مصدر ذلك الإدراك الانسانى للعالم منذ مبدأ الأجيال . أما قاد القرن التاسع عشر فلا أحسبهم رفعوا أبصارهم إلى هذا الأسلوب مستلهمين . إنما هم قد خروا أمام تمثال العلم ساجدين ، أنظارهم خاشعة ترنو في رجاء إلى شعاعين من السكرباء صادرين من عذسات عينية الجامدتين . القرن التاسع عشر قرن تأليه العلم . فلقد بهر العلم العالم بانتصارات حاسمات متواليات . فاذا الأدب والفن والفلسفة كلها تهرع إليه تقرله بالغبية والسلطان . وإذا كل شئ يطلب إلى العلم تفسيراً . وإذا العلم في نشوة الظافر وبسمة الواثق لا يأتى أن يقضى فيما يعنيه وفيما لا يعنيه . وإذا العلم وهو علم المادة يريد أن يتحدث في شئون الروح . وإذا سئل عن الروح قال دونكم هذا الطريق وأشار إلى عين الطرائق التي أدت إلى الفوز في شئون المادة : التحليل والتكوين والتجربة والقياس والاستنتاج

والاستقراء الخ ، بهت العالم لنظرية النشوء والارتقاء ، وآمن الناس أن أصلنا من ماء وخلايا حية وحيوان ظل يسمو في المرتبة على مدى الأزمان حتى بلغ القرد جد الانسان ١ نظرية جميلة ، خلّب جماها اللب على الرغم من إشاعة ذلك الجذع الغول . أما صدقها فجائز من حيث المادة والأجسام . ولكن . . . وهنا القضية : أتصدق هذه على الروح أيضا وشؤون الروح ؟ الاحساس بالجمال : أنخفض أيضا للنشوء والارتقاء نعم ، نعم ، نعم . هكذا قالت المدرسة الانجليزية (سبنسر ، جرانت ألن رسكن) وكان لابد لهذه العقول التي فتنتها نظرية التطور في المادة أن تبرر للناس نظرية التطور في الجمال .

وعجب الناس لنظريات علم طبقات الأرض وعلم الحيوان وعلم الحياة وأبحاث (لامارك) في تأثير البيئة والمناخ وظروف الحياة على طبيعة الأجسام ، فقامت المدرسة الفرنسية (هبوليت تين) تخرج للفكر والأدب نظرية للجمال والفن : الوحي فيها والالهام : مقابيل الحرارة وموازن الأحجام ١

بل إنى لأرى أصبح العلم قبل ذلك بقرن يقود المدرسة الألمانية إلى نظريتها في الجمال عمانويل كانت) . . .

ولم يكف العلم هذا التوجيه والتأثير بل تناول يديه في هذا المهد الحديث جسم الجمال ، وأعمل فيه المشروط والمسبار (علم النفس الحديث) قضى الأمر ، وخرج الجمال من حدائق الفلسفة إلى معامل العلم . . .

لست أزدري على طرائق العلم . فهي وسائل البشرية التي لا تملك غيرها . وأذكر يوم كنت أرصد وقتاً للتفكير في هذه المسائل أني بسطت أمام نفسي هذا السؤال الساذج . الحيوان ماعلمه بالجمال ؟ حصان بين مهرتين إحداهما جميلة مليئة شهباء والأخرى قبيحة هزيلة عرجاء ، إلى أيتهما يميل ؟ ما ترددت يوماً أن أقول في ثقة واقتراف « إلى الجميلة يميل ، ماوجه الترجيح ؟ لست أدري ، وحبذا التجربة فهي الحكيم الفصل ! » . لسكني يوماً كنت أفكر تفكيراً صرفاً في أبراج عاجية اعتدت أن آوى إليها للتفكير الهادي ، فأين لي بالخيول والأفراس أجرى عليها التجارب ؟ فماذا أقرب بأن التجربة وسيلة بشرية طبيعية للوصول إلى المعرفة . وأقرب بأن شعرت يوماً بالحاجة إلى ممارستها في شئون الجمال . غير أنني على الرغم من هذا لا أحب أن أعتمد ببساطة أن نظريات العلم في شئون المادة تصدق دائماً في شئون الروح . لاشيء يستطيع أن يقنعني بأن إحساس الجمال . وليد تطور ونشوء . بي رغبة أن أصبح بغير دليل في يدي أن إدراك الجمال ولد كاملاً في قلب الإنسان منذ رفع بصره وبصيرته إلى أسلوب الله فوعاه . إنني أخشى أن تقع في الغلط إذ تطبق نظريات المادة في مسائل الروح ، وهل تستطيع أن تجهز قول رسكن وجرانت أن في الإلياذة : « ... ماكان يعنى الأقدمون بالطبيعة ولا يجماها إلا حين يتصلان بعيش الإنسان - في الإلياذة ما كان يوصف منظر طبيعي لذاته ، بل لمنفعته

للإنسان ، كأن يكون مسكنا خصبيا يفيض بالحنطة أو تسكثرفيه
الحياد . ما كانت الطبيعة سوى إطار للحوادث والأشخاص ، لا إنهم
لذاتها محل للوصف . إن الطبيعة لم تحب لذاتها إلا في العصر الحديث ،
حيث استيقظ الإحساس بها . إحساس صاف خالص لا تشوبه
شائبة النفع أو المصلحة . . « ماذا أقول في هذا الكلام ؟ أهو جبل
بمشاعر الأقدمين ؟ أم تورط في تطبيق نظرية التطور والنشوء ؟
أنصدق حقا أن الشعور الرفيع بجمال الطبيعة لم يعرفه القدماء خالصا
لدنوعهم من الحيوانية ؟ أنصدق أن « هومير » لم يحس بجمال الطبيعة
لذاتها ؟ أهذا رسكن يقول هذا الكلام ؟ أما أنا فقد مضى كلامي
في الطبيعة والقدماء ، ورأى الذي أبدته في رسالتي الأولى أن الأقدمين
كانوا أقرب منا إلى الطبيعة وإلى فهمها . لقد كان الأقدمون يحسون
أنهم جزء من الطبيعة ونعم من أنعامها . أما رسكن وأن أو الإنسان
الحديث فلا يحس إلا ذاته الآدمية منفصلة عن الطبيعة وعن كل شيء .
دليلي في القدماء من مصريين وإغريق . أهذا فن قوم لا يحسون
الطبيعة لذاتها ولا يدركون قوانينها وأساليبها ؟ إلى هذا الحد يصل
الانقياد إلى النظريات ؟ من أجل هذا لا أريد التمكن من العلم حتى
يجلس على عرش النقد دون شريك . أحب طرائق العلم . لكني
أخشى نتائج العلم . فلترفع بالروح قليلا . لست أريد أن أضع الروح
تحت مبضع العلم ، رهبة مني أن يشقها فيجدها غلافا أجوف . وإني

لا أنسى يوم شاهدت تشريح جثة آدمي للمرة الأولى . أى قاق يومئذ مزق إيماني بقيمة الانسان كلاً . إني كرجل من رجال الروح لا أريد أن أفجع في خير ما أعيش به وله . يريح نفسي دائماً أن أول إن عقل العلم لا يكفي . ولا بد دون إدراك الجمال والروح من العودة إلى القلب . أريد ألا يخرجني العلم من ذلك الايمان الذي كان يضيء في قلوب المصريين القدماء إيمان قريبهم من الخالق ، فاذا هم ببصائرهم العميقة العجيبة أول آدميين استطاعوا فهم أسلوب الله والنفوذ إلى قوانين إبداعه . إن أقصى العلم الايمان . أحب ذلك العلم المؤمن الشاعر الذي عرفه أيضاً الفلكيون العظام في القرنين السادس عشر والسابع عشر : كوبرنيك ، وجاليليه ، وكبلر ، آخر قطرة من ذلك العلم الممزوج بالايمان ، كانوا ينظروا إلى الكواكب كما نظر إليها من قبل المصريون الأقدمون لابين العقل وحده ، بل بعين القلب أيضاً . كانت السماء والنجوم في نظرهم مخلوقات حية . كانوا أيضاً يحسون في كثرة النجوم وفي هذا السكون بأ كلة الروح الخالقة ويد المبدع الأعظم . ما أروع هذه العبارة من كبلر ، فيها تلميح جميل لكل ما بلاء نفسه : « . . كل الخليقة ليست إلا سمفونية عجيبة في مجال الروح والأفكار كما هي في مجال الاجسام والاحياء . كل شيء متماثل مرتبط بعري متبادلة لا تنقسم كل شيء يكون كلاً متناسقاً . إن الله قد خلقنا على صورته ، وأعطانا الاحساس بالتناسق . كل ما يوجد

حي متحرك ، لأن كل شيء متتابع متصل ، كل كوكب وكل نجم إن
هو إلا حيوان ذونفس . إن روح النجوم هي سر حركتها وسبب ذلك
الحب الذي يربط بعضها إلى بعض ، وتعليل ذلك النظام الذي تسير
عليه الظواهر الطبيعية . . « أولئك رجال ساروا في بيدااء العقل دون
أن يفسوا دليل القلب ، أولئك هم العلماء العظام ! أرى أنك قد
استشففت رأى بعد هذا التمهيد . نعم ولا أخشى أن أجيب الآن عن
السؤال فأقول إن التيارات الثلاثة التي ذكرتها تصدق أيضاً في النقد
كما تصدق في الخلق . أما التيار الأوربي في النقد فهو المرتكز على العلم .
ونقد وصل إلينا هذا التيار بالفعل وتأثرنا به . وإن بعض كتب النقد
التي ظهرت أخيراً في مصر الحديثة تم عن هذا الاتجاه العلمي . وهو
أمر لا بأس به ، بل هو واجب محتسوم ، على شريطة أن نقرن به
ونضيف إليه عناصر جديدة ووسائل أخرى مستخرجة من أرضنا
وتراثنا إذا أردنا أن ننشئ لآدابنا طريقة شخصية كاملة في النقد .
فأما التيار المصري القديم فهو النقد المعتمد على الذوق أى سليقة الماطق
والتناسق ، وهو عند المصريين القداماء سليقة المنطق الداخلى للأشياء .
والتناسق الباطن أى القانون الذى يربط الشيء بالشيء ؛ أى جمال
للأهرام غير ذلك التناسق الهندسى الخفى وتلك القوانين المستترة التى
قامت عليها تلك الكتلة من الأحجار ، جمال عقلى داخلى ، كذلك
أسلوب الخالق لا يعنى دائماً بالجمال الظاهر وحده فى خلق الطبيعة . فأى

جمال لجبل المقطم ؟ إن الجمال الظاهر نسبي لا يفدره غير الإنسان ،
 إنما المنطق الداخلي للأشياء هو كل جمالها الحقيقي ، هذا الإدراك
 للجمال الخفي فطن إليه المصريون القدماء يوم صنعوا « الأهرام » ، فهم
 لم يرموا إلى الجمال الظاهر الذي يسر العين ، إنما أرادوا أن يصنعوا
 بأيديهم البشرية ظاهرة من ظواهر الطبيعة ، في روعتها وضخامتها وقوة
 تأثيرها . وقد تمت المعجزة . وإذا الأجيال على مدى آلاف السنين
 تعبرا هرام عبورها جبل المقطم سواء بسواء وكأنما اختلط الأمر
 في ضمير الزمن وضمير البشرية فارتفع هذا « الخلق الأدنى إلى مقام
 الظواهر الطبيعية ! أولئك قوم أرادوا أن يقلدوا أسلوب الله في عظمته
 ودقة قوانينه ، فأعانهم الله على ما التمسوا ، وكشف لهم عن بعض أسرار
 وطرائقه ! هذا المقياس المصري القديم للجمال ما أحسبه قد أثر بعد
 في حياتنا الفكرية أو في أحكامنا الفنية . أما التيار العربي القديم فهو
 النقد الذي قوامه ذوق الحس ، أي سليقة المنطق الظاهر والتناسق
 الخارجى . الجمال عند العرب هو الجمال الظاهر الذي يسر العين ويلذ
 الأذن . أستطيع أن نتخيل العرب تبني الأهرام أو تقدر فيها جمالا ؟
 لقد جاء العرب مصر وتحدثوا بجمال نيلها وأرضها وسمائها ولم يروا في
 الأهرام إلا شيئا قد يحوى نقودا مخبوءة ، أما بناؤه فشيء لا يحسب
 في الفن . إنما الحس عند العرب حسن الهيئة قبل كل شيء . المساجد
 كالعرائس تكاد تخطر حسنا بزخارفها ، زينة للناظرين . بغير هذا فلا

عمارة ولا فن. الشعر رنين لذيد، وخيال جميل، ومعان لطيفة وألفاظ مختارة
 ظريفة، بغير هذا فلا شعر ولا فن. الجمال عند العرب جمال إنسانى
 والفن عندهم شيء صنعه الانسان لنفسه والمذته. الفن العربى القديم فن
 إنسانى دنيوى، والفن المصرى القديم فن إلهى دينى: لهذا اختلفت
 المقاييس فى الجمال بين الفئتين، أحدهما يعنى بالتناسق الشكلى الذى
 يروق الانسان، والثانى يعنى بالتناسق الخفى بغير التفات إلى الانسان.
 ولعل المقياس العربى القديم هو فى مصر المنفرد حتى اليوم بالحكم فى
 فضايها الشعر والأدب.

هذا المقياس العربى ذو الابدرة الدقيقة عجيب فى تسجيل كل
 انحراف عن منطق الألفاظ. إنما هنالك فى اعتقادى منطق آخر مستتر،
 أمره يعنى المقياس المصرى.

إنى يوم قلت بمزج الروح بالمادة فى آدابنا كان يجب على أيضاً أن
 أقول بوضع المقياس المصرى فى النقد بجانب المقياس العربى . . .

كوم حماده فى سبتمبر عام ١٩٣٣ من رسالة إلى طه حسين

بين الخالق والناقد

... حقيقة أذكر أنك كنت عازماً على نقد كتابي « محمد »
فما الذي منعك ، وأذكر أيضاً أنك أفضيت إلى بخوفك أن يسمى
بعض رجال الدين فهم مرادك فأضار أنا بذلك ، وهي عاطفة نبيلة
حمدتها لك . على أني فيما أذكر أيضاً قد شجعناك على الماضي في نقدك
وهو في جملته لا يؤيدني . بل إنني قد وافقتك عليه معجباً بفراستك
مقدراً لبراعتك في الوقوع من فورك على المواطن التي يجوز فيها
النقد والكلام . فأنت ترى أن المؤلف لم يغضب ، بل ابتسم واغبط
ليقظة الناقد . في الواقع أني لست أومن كثيراً بتلك الأسطورة التي
تروي عن غضب المؤلفين . واسمح لي أن أتكلم بلسانهم فأقول إن
هذا الغضب لا يجد سبيلاً إلى نفس الكاتب إلا إذا شعر من ناقده
بعزوف عن الحق والجد ، ونزوع إلى الخط من القدر مبطن بسوء
القصد . فالناقد الذي يحترم شخصي ويهيم على لا يغضبني لأنني أعلم
أن الأديب لا يهيمه النقد ، فهو كائن ممتاز لا يهيم ، ولا يقبض إلا
بأذنه ولا يقضي عليه إلا بارادته . إن الأديب لا يموت مقتولاً ، بل
يموت منتحراً . ومع ذلك فاني لا أحب للمؤلفين أن يغضبوا على أي
حال ، فإن الغضب علامة الضعف الأدبي . ولا شيء في الوجود أقوى
من الابتسامة ، ولكن من ذا الذي أعطى القدرة على الابتسام للصافي

الجميل في كل موقف وفي كل حين ؟ أهو الجبار وحده ؟ ألا ترى معي أن الجبروت إنما هو الصفاء ؟ . (إذا أردت أن تسلك طريق السلام الدائم ، فابسم القدر إذا بطش بك . ولا تبطش بأحد) . . . تلك كلمة لعمر الخيام ، وضعتها في صدر كتابي (عصفور من الشرق) الذي لم أكتب منه في سنوات ثلاث أكثر من ثلاثة فصول . وإنك لتعجب إذا قلت لك إن هذا البطء أو هذا العجز مرجعه علة واحدة قد انكشفت لبصيرتي آخر الأمر : عدم استكمال الصفة العليا التي يرثيها بعض رهبان الفكر كما تردى المسوح : الصفاء .

إن كنت من رأيي في كل هذا فإن لي عندك حاجة : أن تنثر معي تلك الابتسامة بين الأدباء ، فإن الأدب شيء جميل ، هو جنة لا صخب فيها ، وهو معبد لا تدخله الأحقاد . إن أعجب ظاهرة في أدبنا أنه لا توجد فيه صداقات عظيمة جديدة أن يتحدث عنها تاريخ الأدب ، تلك الصداقات التي نراها في آداب الحضارات الكبرى قد أنتجت من الرسائل والأخبار والآثار ما لا يقوم بمال . ما الذي يعوزنا نحن ؟ أهو شيء في الخلق ؟ أم هو ضعف في النفس ؟ أم هو نقص في الثقافة ؟ لست أعلم . إنما الذي أعلمه : أن الصداقة الخالصة بين رجال الأدب والفكر ، هي أظهر دليل على نضوج هذا الأدب ، وهذا الفكر .

القاهرة في يونيو عام ١٩٣١ من رسالة إلى أحمد أمين .

في الأدب والفن والثقافة

غاية الأدب والفن

... « هذا هو الأدب الأمريكي يحمل لواءه اليوم رجال مارسوا الحياة العملية في شتى شؤونها . ثم لم يكتبوا في خيال وأوهام وأحلام ، إنما يكتبون في أكثر ما يكتبون في مشكلاتهم الحالية ومسائلهم اليومية وحياتهم الاجتماعية ، وأكثر هؤلاء لا يستوحون أساطير اليونان والرومان ، وإنما يستوحون مجتمعهم وما فيه وما يصبوا إليه . فللأديب العربي أن يستوحى امرأ القيس أو « شهر زاد » ! ولكن يجب أن يكون ذلك نوعاً من الأدب لا كل نوع ، ولا هو النوع الغالب ولا هو الأرقى . » (١)

مع الأسف أراي مضطراً أن أقول للصادق المبجل إن استيحاء أساطير اليونان والرومان وامرأ القيس و « شهر زاد » هو النوع الأرق في الأدب . في كل أدب . . لا في الماضي وحده ولا في الحاضر . . بل في الغد أيضاً وبعد آلاف السنين ، ما دام الإنسان إنساناً ، وما دام رقيه الذهني بخير لم يصبه نكاس . فلانسان الأعلى هو الذي يصون « الجمال الفنى » عن الاستغلال الأرضي في أى صورة ويحتفظ فيه لمنهجه الذهنية وثقافته الروحية . وإن اليوم الذى نرى فيه « الأدب » قد استخدم للدعايات الاجتماعية ، و « التصوير »

(١) من مقال لاجد أمين نشره في مجلة « الثقافة » م ١٩٤٤

استغل في معارض الاعلان عن السلع التجارية ، و « الشعر » جعل أداة لإثارة الجماهير في الانتخابات السيامية ، هو اليوم الذي فوقن فيه بأن الإنسان قد كثر فانقلب طفلاً يضع في فمه تحف الذهن وطرف الفكر ، لأنه لا يدرك لها نفعاً غير ذلك النفع المادى المباشر . والأدب الأمريكى الذى يعجب به أحمد أمين بك هو فى أغلبه صحافة راقية أكثر مما هو أدب حقيقى . والأدب الحقيقى فيه هوما استند إلى أساطير اليونان والرومان ، أى مخلوقات الانسانية التى أبدعتها أحلامها الجميلة وخيالها الرائع . فالتحلاف بينى وبين صديقى أحمد أمين هو على معنى « الرقى » ، فأنا لا أسلم أبداً بأن رقى الانسان هو فى تقدم أسباب معاشه المادية . هذا حقاً هو الرقى بالمعنى الأمريكى ، ولكن الرقى بالمعنى الانسانى المثالى شئ غير ذلك . إن الانسان الأعلى ليس ذلك الذى يضع كل شئ فى فمه ولكنه ذلك الذى يشعر بحاجته إلى متع معنوية وأغذية روحية وأطعمة ذهنية لا علاقة لها من قرب أو بعد بضرورات حياته المادية أو الجثمانية . هذا هو الفرق الوحيد بين الانسان والحيوان . فالحيوان لا يحتاج إلى أن يطرب لببت من الشعر أو لصوت من الغناء أو التمثال من الرخام ، ولا يمكن أن يخطر له على بال وجود عالم آخر غير عالم الآكل والشرب والمأوى . ولو نشأ أدب بين فصيلة من الحيوان لكان هذا الأدب فى رأى قائماً فى جمته على مشكلات العراك على صيد الفريسة ولا تقتصر خياله على الحلم بأن فى بطن كل سبع غزالاً سميناً ، وفى فم

كل حيوان في الغاب صغر أو عظم غذاء موفوراً بغير وثب ولا بحث ولا تربص بل فلناخذ مثلاً جماعة النحل أو النمل وقد بلغت من الدقة والتناسق وروح التضامن في نظامها الاجتماعي ما أثار الدهشة ، هذا المجتمع الذي شيدته النحل على هذا الأساس من «الوعي الاجتماعي» لا «الوعي الفردي» لوقامت فيه نخلة شاعرة أو أديبة ، أو ظهر فيه أدب وشعر ، فما يكون نوعه واتجاهه ومراميه ؟ لاشك عندى أن هذا الأدب أو الشعر سيكون له عين المرامى التى ينزع إليها الأمر بكان ويتمناها لنا أحمد أمين . سيتحدث أدب النحل وشعره عن الأزهار من حيث كمية عسلها ، ونصيب كل عامل من عمال النحل في نقله وإعداده والانتفاع به في الخلية ، وعن حقوق الطوائف العاملة وواجباتها ، ومشكلاتها اليومية وشؤونها الحيوية . أما الذى لن يحدث أبداً فهو النفات النحل في أدبه أو شعره إلى حسن الأزهار في ذاتها ، وإلى بهائها فى ألوانها ، وإلى تمايلها اللطيف مع النسيم كأنها تراقصه ، وإلى تفتحها ابتسامة للفجر وهى تعانقه ، وإلى نداها بدموع الليل وعى تفارقه . . . لن يظن النحل إلى هذا أبداً . . . ولو فعل لانتقلب إنساناً فى لحظة واحدة . كل فضل الإنسان على غيره من المخلوقات أنه ارتفع إلى العناية بأشياء معنوية لاتصل مباشرة بطعامه وشرابه ومقومات حياته المادية . وهذه الأشياء سماها فيما سماه : الفن والأدب ، وحرص على أن تبقى على قدر المستطاع بعيدة عن تفاهاته الأرضية ، لنذكره

من حين إلى حين أنه ليس حيواناً . وهنا عظمة الفن
 (والآدب . ولكن مطامع الناس شامت أن تمد أيديها الفانية
 إلى هذا الجوهر السامى لتسخره فى شئون الأرض ، فرأينا
 الشعر والآدب يتجهان إلى غايات نفعية ، فاستخدم الشعر
 أحياناً لمدح الملوك والأمراء من أجل المال والتراء ، أو لنشر
 الدعوة فى الدين أو السياسة من أجل الثواب أو الجزاء .
 ولكن كلمة الفن هى العليا دائماً ، وحكمه هو النافذ وحده . وها هو
 ذا قد حكم لامرئ القيس الجاهلى فرفعه وقدمه على داعية
 الاسلام حسان . وفى هذا الدليل على أن الفن الخالص لوجه
 الجمال الفنى هو الأرقى والأبقى وذلك ما لا يسلم به أحد أمين .
 فهو يعتقد أن الفن المسخر لخدمة الضرورات اليومية فى المجتمع
 هو الفن الأرقى ، متأثراً ولا ريب بتلك النظريات الحديثة
 فى السياسة والاقتصاد التى ترمى كلها إلى تملق الجماهير
 ومداينة الدهماء ومصانعة الجماعات والنقابات والهيئات ومسايرة
 الكتل والسواد من الناس والشعوب ، موهمة إياهم بعمل
 كل شئ فى خدمتهم . وخدمة الجموع معناها خدمة مصالحهم
 الأرضية المادية من مأكل ومشرب ومأوى ، لأن السواد
 والكتل لن يطلبوا أبداً ولن يقبلوا ولن يعرفوا غير هذا النوع المادى
 من المطالب . فإذا أردنا تسخير الفن فى هذه الأغراض فمعنى ذلك

الهيوط به إلى ذلك اللون من النحل . . . أو على الأقل إلى ضرب من أدب الدعاية والوعظ والهداية .

أما إذا كان في الإمكان وجود فن يخدم المجتمع دون أن يفقد ذرة من قيمته الفنية العليا في أرحب به وأسلم من الغور بأنه الأرقى . ولكن هذا لا يتهيأ إلا للأفذاذ الذين لا يظهرون في كل زمان . فن أين لنا في شعرنا بأمثال « المتنبي » ؟ لقد أعدت قراءة ديوانه منذ أسابيع لأنظر كيف بقي ذلك الشعر الذي خرج من وحى الدنانير . الحق أن المال كان باعته ولكن الفن كان غايته . ذلك الذهن الذي أبدع صوراً ترى لها أحياناً حركة ويبصر لها بريق ويسمع لها رنين ، كما في قوله :

وأمواء تصلُّ بها حصاها صليل الخلى في أيدي الغواني
ماذا يعنيني منه أن يكون حافزه استجداء مال أو مدح ذى سلطان
أو خدمة مجتمع أو تملق شعب ؟ المهم أن يكون هنالك فن قبل كل شيء . بغير هذا ما عاش لنا « المتنبي » حتى اليوم . فالسلطان يذهب والدولة تدول والشعوب تتغير ، ولكن الفن باق . .

أما بعد ، فليمتجه الأدب العربي حيث شاء له أحمد أمين . وليخدم الجماعات ومشكلاتها الحالية ومسائلها اليومية ومطالبها المادية ، وليبتعد عن « الفردية » التي هي أساس كل فن ، والتي بغيرها لا يقوم فن وليتجنب « تراجم الأفراد أو ترجمة الكتائب لنفسه أو تحليل الأديب

لبعض الشخصيات أو روايات الغرام « أو نحو ذلك مما يراه صديقي
من قبيل النزعات الفردية ، ولننكر الحقيقة القائلة إن « الفنان إذا لم
يقُل « أنا » فهو ليس بفنان ، كما أن العالم الذي يقول « أنا » ليس
بعالم » لننكر ذلك مؤقتاً ولننظر . . عسى أن يخرج لنا أثر فيه الفن
وفيه منفعة السواد . .

الفن والاصلاح

لم يزل موضوع الأدب العربي ومستقبله في حاجة إلى كلام ، على الرغم من الأدلة القوية التي ساقها أحمد أمين في رده على كتبي السابقة . وأخشى أن يقبداً إلى الذهن أننا نتجادل في قضية لنا فيها مصلحة . فالواقع المعروف أن أكثر مؤلفات أحمد أمين مثل « فجر الاسلام » و « ضحى الاسلام » و « قصة الفلسفة » الخ . بعيدة عن الانجاسه القومي أو الاجتماعي الذي يروجوه لأدبنا العربي ، كما أن « ضحى كتبي مثل « عودة الروح » و « يوميات نائب في الأرياف » قد رمت بالفعل إلى هذا الهدف منذ زمن . فالقصة الأولى (عند ما نشرت بالفرنسية في باريس عام ١٩٣٧) كتب عنها ناقد يقول : (لو كان بريس Barrès ^(١) حياً وإطلع عليها لنعمها بقصة النشاط القومي) . كما أن الكتاب الآخر يرمى كما هو معلوم إلى نقد المجتمع الربني بحكمه ومحكوميه ، فأنا إذن أقرب إلى تلك الدعوة ولي في نجاحها مصلحة أكثر مما لصدقي أحمد أمين . ولكن العقيدة الأدبية والايان التي أقوى فيما يبدو عند كل منا وأرفع من المصالح انصاصة والغايات الشخصية ، فمننا قشتنا اليوم تقوم في جوهرها إذن على الرغبة المجردة في الوصول إلى غرض واحد : هو كيف نبلغ بأدبنا العربي قمة الكمال ؟ الغاية واحدة ولا ريب ، ولكن

(١) الكاتب والسياسي المشهور صاحب المؤلفات القومية النزعة .

السبل مختلفة ، فأحمد أمين يرى أن أدبنا لن يصل إلى مرتبة الآداب الأوروبية إلا إذا خاض مثلها في طريق الحياة العامة ، فنقد الفاسد من أوضاع المجتمع ، وقوم المعوج واقترح وسائل الإصلاح ، ونادى بالنافع من العلاج ، والمستحدث من النظم ، وكان له من أعلامه قادة للرأى العام يبصرونه بمواقع خطاه في طريق التقدم الاجتماعى ، واتخذ من أناطول فرانس وبرناردشو وتولستوى مثلاً يحتذى .

وهنا يجدر بنا أن نسأل : هل من الحق أن الأدب الأوروبى بلغ مبلغه هذا بفضل نزوله معترك الحركات الإصلاحية ، أو بفضل قيمته الفنية ومزاياه الأدبية ؟ وهل نزعات الإصلاح الاجتماعى هى اللون الغالب فى الآثار الأوروبية ، أو إنها لون ليس بالغالب حتى فى آثار المؤلف الواحد ؟

الذى أعلمه هو أن أناطول فرانس أديب ، وأن برناردشو مؤلف مسرحى ، وأن تولستوى قصصى . وتلك هى صفاتهم التى تؤخذ على سبيل الجد . أما ميول فرانس وشوا الاشتراكية ونزعات تولستوى الإصلاحية ، فهى نواح ينظر إليها تارة بغير احتفال ، وتارة أخرى على أنها توابع أوظواهر ودلائل قد تفسر على ضوءها بعض أعمالهم الأدبية وآثارهم الفنية .

إن الآداب الأوروبية لم تحترم يوماً فنانياً أو أديباً لأنه مصلح ، وليكنها قد تحترم المصلح إذا كان أديباً أو فنانياً . ولعل أبرز مثل

لذلك هو (إبسن) ، فقد هزته أحداث بلاده السياسية والاجتماعية
فكتب تمثيليات مفعمة بروح الإصلاح مثل (براند) و (عدو الشعب)
و (بيت العروس) الخ . ومات إبسن وتغير مجتمعه ونظر الناس في
أعماله . . . وكاد يبرز النقد به وآرائه في السياسة والمجتمع ، لولا فنه
وهكذا مات المصلح في إبسن وبقي الفنان .

نحن الشرقيين تبهر عيوننا دائماً بكلمة (مصلح) بقدر ما نهين
بكلمة (فنان) ، وإني لأنسى دهشى يوم قرأت في مجلة (ماريان)
الباريسية نقداً للطبعة الفرنسية من (يوميات نائب في الأرياف)
للقائد المعروف (رامون فرنانديز) يقول فيه : (إن القارئ لهذا
الكتاب ينسى في أغلب الأحيان المقاصد الإصلاحية التي حركت
المؤلف لوضع كتابه ، بل إن القارئ يتمنى ألا يتغير شيء في عالم هذه
المخلوقات الانسانية) صدمني هذا القول لأنني كنت أعتقد أن مقاصد
الإصلاح لها الاعتبار الأول في مثل هذا النوع من الكتب ، وأن
صفة المصلح هي التي يجب أن توضع موضع التقدير .

لقد تحدث الأستاذ أحمد أمين في أكثر من موضع عن الروايات
الغرامية وغمرة الحب بما ينم عن الازدراء . . . فذكرني ذلك من
غوري برواية شكسبير (روميو وجولييت) ، وقلت في نفسي :
هاهي ذن قصة ليس فيها إصلاح لمجتمع ولا نهوض بشعب ، وكل
ما فيها غمرة الحب . ومع ذلك فقد خلقتها الإنسانية حيث طرحت

ومزقت كثيراً من صفحات المصلحين وكتابات الهادين والمرشدين . إن الإنسانية لأدري بما يسرها وأعلم بما يسعدها مني أنا ومن أخى أحمد أمين . كم من المؤلفات المملوءة بالارشاد والإصلاح قد نشرت وظهرت ولم تحتفظ بها ذاكرة الزمان .. ولكنها احتفظت بقصة غرام وقصيدة غزل ورواية حب عارم .. وإذا كان حقاً أن الزبد يذهب جفاء وما ينفع الناس بمكث في الأرض فماذا نقول في بقاء (رومي وجيليت) وفناء الكثير من القصص الانكليزية التي قصد به إصلاح المجتمع؟ بل ماذا نقول في خلود قصة (غادة السكلميا) لدوماس الصغير وموت أكثر رواياته الأخرى التي عالج فيها موضوعات اجتماعية كلها جد وحسن قصد ..

كلا . لا ينبغي أن نعلي على الفن اتجاهاً بعينه . ولا يجوز لنا أن نوصيه بارتداء لباس الحكمة الزينة أو رداء الإصلاح الوقور ..
إلا أن يشاء هو ويرضى .. لأننا إذا أرغمناه سخر منا وجعل من أردية رزانتنا ووقارنا أثواب مسخرة ، وقلب بسحره أثواب الهزل خلوداً تنحني أمامه الجباه على الرغم منا . لقد أصاب (أندريه جيد) إذ قال إن الفن لا ينبغي له أن يثبت شيئاً ولا أن ينفي شيئاً . إن الفن العالى ليس أداة للجدل . إنما هو شيء كالسحر ينفذ إلى النفوس فيحدث فيها أشياء . إن الفنان ليس مصلحاً ولكنه هو صانع المصلح كل أولئك المصلحين من ملوك وزعماء ومساة ما كونهم وهياتهم

لرسالات الإصلاح غير أدب الادباء وشعر الشعراء وفن الفنانين إن الفنان هو مصلح المصلح ولا شيء غير ذلك . أما أن ينزل الفنان بفننه إلى الميدان يناقش ويدافع ويهاجم وينافح . فهذا مالم نره حتى الآن في فن استحق البقاء في أي أمة من الأمم أو حضارة من الحضارات . من الحق أن بعض أهل الفكر والفن قادوا الرأي العام في بلادهم وبلاد العالم ولكنهم كانوا في الواقع يفعلون ذلك باعتبارهم شخصيات عظيمة مفكرة من واجبها أن تبدى آراءها في المسائل الكبرى ، لا باعتبارهم فنانين يحمون قنهم في ميادين الشؤون اليومية . لطالما تحدث الشاعر « فاليري » عن المشكلات الإنسانية التي تمس المجتمع العالمي الحاضر ، ولكن هل رأيناه وضع ذلك في قصيدة واحدة من قصائده ؟ إن قيادة الرأي العام واجبة على الأديب . ولا ينسى أحمد أمين ندائى إلى الادباء أن يقدموا القيادة الروحية والفكرية في أول هذه الحرب ومقام حول هذا النداء من جدل ، ولكن الذى أراه خطراً على الأدب هو قهر الأديب على أن يتجه اتجاهاً بعينه في صميم فنه . وحسبنا أن نتأمل حال الأدب في البلاد المذكورة التى كبت وحى الادباء بالقيود . فلم تخرج من قلوبهم إلا كتابات مقفلة تفوح برائحة واحدة كأنها خارجة من مطبخ واحد . إن الفن هو الحرية ، حرية الفكر والشعور . ولا منبغ له إلا الفكر الفنان وقلبه ، هما وحدهما الهاديان له . إن الوعي الفردى هو روح الفن ، فاذا أردنا إبادة الفن واستئصاله من الأرض فلنقتل فيه ذلك الوعي

الفردى . ولقد أصاب صديق الطرفين الكاتب الكبير العقاد إذ قال في تعليقه على مناقشاتنا هذه : « إن اتجاه التاريخ الإنسانى متقدم من الاجتماعية إلى الفردية » . وهذا حق ، إذ الفردية هى عنوان الكرامة الإنسانية . هى شعور الإنسان بقيمة فكره وإحساسه لا بفكر الجماعة وإحساسها . إن الحيوان لا يفكر بفكره ولا يحس بإحساسه . إنما هو يفكر ويحس بغريزة الجماعة كلها والنوع كله . ولن يرقى الحيوان إلى مرتبة الإنسان إلا إذا استقل فى تفكيره وإحساسه . إن الوعى الاجتماعى فى الحيوان هو الذى جعل الحيوان حيواناً والفردية أى الحرية هى التى جعلت الإنسان إنساناً . على أنه لا ينبغي الخلط بين الفردية والأناية . فأنى حينما قلت إن « الفنان الذى لا يقول (أنا) ليس بفنان ، كما أن العالم إذا قال (أنا) ليس بهالم » . إنما قصدت إلى المعنى الفنى لا المعنى الخلقى . قصدت أن الفنان هو الذى يقول « إن الطبيعة جميلة » . لأنى أراها جميلة أما العالم فلا ينبغي له أن يقول ذلك ، ولكن عليه أن يقول : « الطبيعة جميلة أوقبيحة ، ساكنة أو متحركة » ، لأن البحث والتحليل والبرهان والدليل تؤدى إلى هذه النتيجة . الفنان هو الذى يكشف عن الطبيعة من خلال نفسه المجهر . والعالم هو الذى كشف عن الطبيعة من خلال المجهر وكلاهما يكمل الآخر فى بناء المعارف الإنسانية ولا ينبغي لأحدهما أن يلجأ إلى وسائل الآخر فى استجلاء الحقائق واستكناه

الطبائع . إن الفن مصدره الشخص ، والعلم مصدره الموضوع . الفن
شخصي والعلم موضوعي . الفن يقول « أنا » أي « نفسي » ،
والعلم يقول « هو » أي « الشيء » .

أما أن يخدم الفنان والعالم أمتهم وقومه فهذا واقع بالبداهة
 والضرورة ، لأن آثار الفن والعلم لا تبقى ولا يمكن أن تبقى إلا إذا
 رأى الناس في بقائها منفعة . فلا ينبغي أن نقول للفنان والعالم :
 « اصنعوا شيئاً نافعاً للناس » بل يجب أن نقول لهما فقط : « اصنعوا
فنّاً وعلماً »

منابع الفن المصرى

فى عام ١٩٣٣ عقب نشر كتابى « أهل الكهف » جاءنى أديب
صحفى بمحادثة فى شأنه ويسألنى فيما حملنى على اختيار موضوعه ، فأجبتة :
— حملنى على ذلك شىء واحد : الرغبة فى كتابة مأساة مصرية
على أساس مصرى . إنك تعلم أن أساس المأساة الاغريقية هو « القدر » .
هو ذلك النضال الهائل بين الانسان والقدر ! فهل تعلم ما أساس المأساة
المصرية كما أتصورها ؟ أساسها : « الزمن » ، أساسها ذلك النضال
الهائل بين الانسان والزمن . اقرأ « كتاب الموتى » فمخس ذلك لفور
عند الاغريق هو « القضاء والقدر » وعند المصريين هو « الزمان والمكان » ،
لكل من الشعبين تنين مخيف كتب على الانسان قتاله ! وأنت ترى
أن « تنين » المصريين وهو « الزمان والمكان » رأسه فى هذه الأرض
وذنبه فى العالم الآخر المجهول . نعم إن مصر لا يمكن أن تفكر فى غير
الخلوص إلى حياة أخرى . دائماً ما وراء الطبيعة . دائماً الفلاسفة الدينية .
دائماً ذلك الفزع من الموت وذلك الأمل فى انتصار الروح على الزمان
والمكان ! وذلك الانتصار إنما هو فى « البعث » . . . بحث لا إلى
عالم آخر لا يعرف الزمان والمكان ، وإنما بحث إلى عين هذا العالم
ونفس هذه الأرض بزمانها ومكانها . ولقد شيدوا الأهرام لتقوى
على هذا التنين . حصون الروح فى حربها الخيفة مع عناصر الفناء الأدمى .

ضميمة
المحور

التعجيب كذلك اختراع آخر ولدت له ضرورة الدفاع في تلك الحرب
الضروس ! أين تلك الحروب من حرب طروادة ! لم تكن مصر
في حاجة إلى هوميروس منها يسطر أخبارها : لأن صليل
تلك الحرب لا يوصف من قلم بشري . إنها صيحات الروح تدوى طول
الأبد من بين سطور « كتاب الموتى » . إن أعظم مأساة لم تدون
ولا يمكن أن تدون : المأساة المصرية ! وبعد هذا تسألني ما الذي
حملني على كتابة « أهل السكم » ؟ إنها صورة ضئيلة وصدي خافت
لنلك المبارزة بين « الزمن والانسان » وفي قصتي (شهر زاد) صورة
أخرى لمبارزة بين (الانسان والمكان) .

— إذن أنتم تقولون باستيحاء الفكر المصري القديم ؟

-- إني أقول باستيحاء كل ما هو مصري .

— وكيف نميز ما هو مصري عما هو دخيل على مصر وقد دخلت

مصر وتداولتها حضارات مختلفة ؟

— في مصر أفكار ثابتة لم تتغير إلا قليلا منذ عهد الاساطير

الأولى حتى اليوم . ذلك لأنها متصلة بصميم هذه الأرض ، ومستوحاة

من نفس طين هذا الوادي الخصيب ، ومن نفس هذا النيل الخالد .

إن أفكار الانسان وعقائده ودياناته وخرافاته إنما تولد من مظاهر

الحياة التي حوله . ما اليونان بأساطيرها وفلسفتها بغير البحر المتوسط

وجزر اليونان ؟ وما أساطير النرويج بغير الغابات وبحر الشمال ؟ وما

لغة قصتي
قصته

فلسفة الهند بغير نهر الجانج المقدس وأدغال الهند ؟ . كذلك هل يتصور تفكير مصرى بغير هذه الأرض الخصبة البطحاء التى تلد الخبز فى كل عام دون أن يصيدها العقم أو يبدو عليها الهرم ؟ شبابها خالد . هذا الشباب الذى تفهمه مصر حق الفهم . وهامى ذى آثار مصر منذ الأزل من تماثيل وصور على حيطان المعابد ، هل شاهدت فيها تمثالا واحداً يمثل إنساناً هرمًا ؟ كل تماثيل مصر وصورها تمثل الشباب لأن كل مظاهر الحياة فى مصر من أرض وماء وسماء فتية قوية رقيقة تنجدد وتبعث وتوحى بالحياة الدائمة . إن العمر لا وزن له فى مصر . آلهتهم وملوكهم وكهاناتهم وعبيدهم حليقون نحفاء لا يبدو عليهم عمر ولا سن ولا أثر واحد من آثار الزمن . شباب وفتوة وقوة كهذه الأرض السوداء البطحاء ، التى ما وخطها قط المشيب . إن الزمن لا وزن له عند مصر ، خوفاً منه واحتقاراً له ، أو حفيظة عليه . كل ذلك جائز . إنما الواقع أن مصر كانت تؤمن إيماناً عجيباً بانتصارها على الزمن رمز (العدم) ، بالبعث الدائم

فها هو ذا النيل فى انتظام يحيا ويموت مرة فى كل عام . موت وبعث ، وبعث ثم موت . هكذا دواليك كساقية النيل ذات الجرات الحمراء ! من هذا النيل خرجت أساطير البعث ، وفى هذه الأرض الجميلة الدائمة الخصب نشأت فكرة الخلود وقتال (العدم) تشبهاً بهذه الأرض المحبوبة التى لم تخلق الآلهة جنة سواها ، فهى المرجع

والمآب ، يموتون عليها ويعودون إليها . موت ثم حياة ثم موت . .
وهكذا إلى أبد الآبدين . لا الموت يفتى ولا الحياة تغنى . شأن هذا
النيل في حياته وموته .

تلك فكرة أساسية من أفكار مصر الثابتة . ولدت في العهد
الفرعوني الوثني الأول ، فهل تلاشت مع العهد المسيحي أو مع العهد
الاسلامى ؟ كلا لم تتلاش . ولم تكن مصر تقبل اعتناق المسيحية أو
الاسلام ديناً لها ولم تجد في هذين الدينين فكرة البعث في جوهرها
ولها . ولقد رفضت مصر دين إمرأئيل خلوه من تلك الفكرة التي
لا تميش مصر بغيرها ، البعث هو نشيد مصر الخالد . . يغنيه النيل في
كل عام . . والنبات والطيور والسماء والشعراء !

— أذن البعث والزمن من أفكار مصر الثابتة التي تصلح وحياء
للأدب المصرى الحديث في رأيكم ؟

— بلا شك ، وفكرة أخرى : قوة القلب . بغير قوة
القلب أى قوة الايمان والحب ما كانت مصر تستطيع أن تنشىء
هذا الفن العظيم الذي انتصرت به فعلا على الزمن ولا تزال تنصير به
عليه في كل جيل . وقلب الفنان المصرى الذى نحت تمثال (شيخ
البلد) أو تمثال (نفر تيتى) ما زال ينبض بالحياة ، ويمس حياته رواد
متحف اللوفر ومتحف براين !

— ومصر في عهد المسيح والاسلام ؟

العهد الفرعوني
العهد المسيحي
العهد الاسلامي

قوة القلب

--- مصر في العهد المسيحى كان فيها أدب قصصى دينى صوفى رائع تلمس فيه الشخصية المصرية بأفكارها الثابتة ووسائلها الخاصة أكثر مما تلمح فيه الطابع الرومانى . ومصر الاسلامية شيدت مساجد ضخمة المظهر قوية البنيان بسيطة التفصيل ، لولا أسلوب البناء الاسلامى لخلتها معبداً فرعونياً فى عظمة الأثر الذى نحدثه فى النفس . ذلك أن فن العمارة الاسلامى يسمو بالزخرف لا بالبناء . والفن الفرعونى المعمارى يتفوق بالبناء لا بالزخرف . لهذا السبب كان الفرق ملحوظا بين بعض مساجد مصر الشهيرة (قلاوون) و (السلطان حسن) الخ الخ ، وبين المساجد الأخرى فى غير مصر ، وكذلك كلما استوحى الفنان المصرى تاريخ قلبه وأرضه ، أنتج فناً شخصياً لاصلة له بغير هذا القلب وهذه الأرض . وقس على ذلك الشعر والقصص الذى ظهر فى مصر الاسلامية مفعماً بروح هذه الأرض لايروح البادية أو وحي أمة أخرى .

وما قولكم فى الأسلوب الأدبى الذى يميز مصر ويطبعها بطابع

خاص ؟

— الأسلوب هو مزاج الفنان وطبيعته ووسيلته الخاصة فى إظهار مكنون فكره أو هو الشخص كما قال (بوفون) . هذا صحيح إلى حد ما : إن الكاتب إذ يخلو إلى نفسه وقلبه ويترك التصنع والتقليد يستطيع أن يهتدى إلى أسلوبه . لكن لانتظن الطريق هيناً : ذلك

الطريق الوعر الطويل بين الانسان وقلبه ! إن القلب البشري لأعمق من أن يستكشف قراره من أول نظرة ، إن قلب الإنسان بئر سحيقة رسبت فيها تجاويب جنسه وأمه آلاف السنين طبقة فوق طبقة . فعليه إذن أن ينزل طبقات هذه البئر . وهأنذا أعود بك إلى نغمتي الأولى : حتى الأسلوب ينبغي لنا أن نبحث عنه في أرض مصر وقنها على مدى الأزمان . ولقد سبقنا إلى ذلك البحث أمم الغرب مع الأسف . الفن الحديث كله من تصوير ونحت وعمارة انطلق يبحث عن وسائل جديدة للتعبير فوجدها في مصر القديمة : وجد البساطة في التخطيط . وجد طريقة تركيب الأشكال المختلفة على قواعد هندسية (السكوبزم) ، وجد وسائل التعبير عن حقائق (الشكل) التي تخفى على العين العادية . وجد أساليب الحركة والاضاءة في التماثيل والأعمدة مملا نظيره في قوة الأداء وبساطته كل ذلك وجده الغرب وشيد على أساسه فناً جديداً . ونحن نستطيع أن نجد أكثر من ذلك لو بحثنا طويلاً وتأملنا ملياً . إن كنوز قلوبنا العميقة لاقاع لها ، وهي أدنى إلى أيدينا من الغرباء — وأي أسلوب اخترعوه لاهل السكف ؟

-- لست أعرف . على النقد أن يجيب . إن المؤلف لا يقع في الخطأ إلا عند ما يحاول الكلام في عمله . إن الانسان لا يستطيع أن يرى ملاحظه أو يصفها إلا بالمرآة ، والنقد هو المرآة .

— وهل ستقدمون أهل السكف للتمثيل ؟

— إنى لم أكتب هذه القصة للتمثيل ، ولو كان فى مقدورى معالجة

الفكرة فى قصيدة أو فى صورة زيقية أو فى قطعة موسيقية لعلات .

إنما كانت وسيلتى فى إخراج الفكرة هى الحوار . ذلك القالب الذى

أحبه بين قوالب الأدب . ومع ذلك أليست القصة التمثيلية أحيانا

شكلا من أشكال الأدب ، لها كيان مستقل منسق كالقصيدة والصورة

والهيكل الهندسى ، ذات جمال فى التركيب وتناسب فى الفكرة يوحيان

باللذة الفنية لذاتها . إن التمثيل أحيانا إن هو إلا مجرد تفسير وليس

ضرورة أو غاية أو إتماما للقصة التمثيلية . إن مأسى سوفوكل ،

ودرامات كاليداسا الهندى وفاوست تأليف جوته لى كلها أدب

صرح ، تدخل على النفس بمجرد قراءتها لذة فنية كاملة بغير حاجة

إلى مسرح وممثلين . ولقد أعدت النظر أخيراً فى مأساة (هيبوليت)

لأيلرو بيد فضلتها على (فيدر) لراسين . مع أن راسين راعى مقتضيات

المسرح فى عهده وحذف (السكورس) . فوجدت أنا الجمال فى هذا

(السكورس) المحذوف ، ووددت لو أستطيع ادخال (السكورس)

فى قصّة أكتبها . نعم (السكورس) الآن فى أواخر القرن العشرين

سأعيد إليه اعتباره يوماً . إنما فى لون آخر وبروح أخرى مستمدة

من (كتاب الموتى) ، وأوراق اليردى ^(١) . نعم إن (السكورس)

(١) أرسل إلى « أتبين ديوتون » مدير مصلحة الآثار المصرية بحثاً —

الخفي الذي أسمع همسه الغريب ، وآهاته المتقطعة ، ونوحه المخنوق
ثم هدوءه العميق ، ثم نهوضه وصياحه وإعلانه الانتصارا . . . لهوشى
بعيد عن المسرح قريب من العبد ، عسير على الكلام تفسيره ،
مستطاع للموسيقى وحدها التعبير عنه .

== خلاصا بالمأساة في مصر القديمة ، ضمنه ترجمة دقيقة لأجزاء من حوار أبطال
قصة مقدسه وكلام « الكورس » كما وجد حديثاً في بعض أوراق البردي .
وقد أدهشني جوال القطعة ، كما أنها قد كشفت للعالم درون وتول ولبعث زملائه
من مشاهير علماء الآثار في العالم عن منبع « المسرح الاغريقي القديم » إذ تبين
أن هذه القطعة التشيلية تشمل تسعين قسم كلامي وتسع غنائى ، وأنها كانت
تمثل في المواسم الدينيه ، فالغناء إذن والكورس والرقص الديني الذي عزأ إليه
« نيقشه » أسل التراجيديات الاغريقيه ، إنما يرجع إلى أصل أقدم منه هو « التراجيديات
المصريه القديمه » .

ويصيهجون بالفاظ نكرة مضحكة وفخر كاذب. ذلك أيضاً هو العمى،
والعمى، والسكسل. إنما إنهاض الثقافة الشرقية لا يكون إلا بنهوض
الشرقيين إلى العمل فيبدؤون أولاً بالجرى والحقاق بما وصلت إليه
الثقافة الغربية. تلك الثقافة التي أضفت اليوم كثيراً على ما استطاعت
أخذها من الحضارات الأولى.

فثقافة الغرب خصوصاً في العصر الحديث لاتهمل شيئاً أنتجته
العقل البشري في أي عصر من العصور وفي أي بقعة من البقاع :
فاللور بيون قد أفادوا من الفلسفة الهندية والصينية (شوبنهاور ونيقشه)،
وحتى من الثقافة العربية والشعر العربي (جوته وهابني) ولكنهم
طبعوه بطابع فنيهم وتفكيرهم. ذلك أن حب المعرفة والاستطلاع
لا يمكن أن يسمح لرجال الفكر الحقيقيين بالاقنناع بلون واحد
أو الوقوف عند حد معلوم. فاللور بيون دائماً يأخذون ما عند غيرهم
من ثروة فكرية ليصبوه في قالبهم.

فأوربا إذن على ثروتها وغناها الثقافي اليوم لم يخطر ببالها قط
أن تتقاعد عن قطف ثمار أية شجرة أخرى. إن الفكر البشري ليس
له حدود «دولية» إنما هنالك المزايا الخاصة والطبيعة الخاصة التي
تمكّن تلك الثروة المباحة التي تنهل منها كل ثقافة وكل حضارة
إن الحضارة الأوروبية في الحقيقة لم تخلق بيديها خالقاً كل هذه
القوالب المعروفة في آدابها وفنونها ولا كل هذه النظريات الشائعة في

فلسفتها وعلماها. فان كثير آ من هذه القوائب والنظريات مأخوذ عن الشرق
في حالته الأولية ولكن الأوربيين زادوا عليه وأضافوا إليه وأخرجوه
مهوراً بامضائهم ومطلياً بشخصيتهم . وهذا في الواقع عمل كل حضارة
من الحضارات . ولا نستثنى من ذلك الحضارة الإسلامية نفسها في
عصورها الزاهرة فاهى الإجماع أفكار وثقافات وحضارات أم مختلفة
صحبها الإسلام في قلبه وجعل منها لونا خاصاً .

فالثقافة الشرقية إذن لا يمكن أن تكون اليوم يعزل عن ثقافة
أوربا ولا أن تغمر عينيها عن هذه الثروة الهائلة ، فلنمد أيدينا
إذن غير مقيدين بسلاسل التقاليد أو العادات أو العقائد ، فأخذ كل
شيء ، ونهضم كل شيء ، ثم نخرج على روحنا القديم كل في بلده ،
فنستخلص الأفكار الثابتة المدفونة ، إذ لا ريب أن كل بلد من بلاد
الشرق فيه مناجم للفكر مغممة متألقة لم تستخرج بعد . فالغرب على
نشاطه الفكري ونهمه الذهني لا يستطيع أن يستخرج كل كنوز
الشرق مثل الشرق ، إذ لا بد أن تكون معاوله قد ارتطمت
بحواجز منيعة من أسرار طبيعية لا تكشفها غير طبيعة الشرق
وغرائزه وتجارب حكمته المتراكمة في أعماق نفسه على مدى
آلاف السنين .

فاذا تم لنا ذلك ، فإنا نستطيع أن نطبع كل تلك الثروة وكل
تلك المادة بطابعنا الخاص ، على نحو ما حدث عندما اختلفت طبائع

الدول الشمالية في أوروبا عن طبائع الدول الجنوبية ، فتفرعت عن الثقافة الواحدة ثقافتان هما الثقافة اللاتينية والثقافة الانجلوسكسونية ثقافتان لا تختلفان من حيث مقدار الثروة الذهنية ، وإنما تختلفان في الطابع والمزاج والروح . فإذا كان في مقدورنا نحن أن نصيف إلى هاتين الثقافتين العظيمتين ثقافة ثالثة لا تختلف عنهما في مبلغ ثروتها ومادتها وإنما تختلفهما فقط في الطابع والطبيعة والروح ، ثقافة ثالثة حية نامية جميلة عليها خاتم شخصيتنا الشرقية ، يراها الغرب فكأنه يرى شيئاً جديداً مستقلاً ، قد أخرج لهم من صدر عبقرية جديدة ، فأنما نكون قد أدينا رسالتنا إلى هذا العالم ، وأمكننا أن نساير الفكر البشري في تطوره وأن نساهم بعملائنا ومواهبنا في بناءه العظيم ، وأن نظفر أخيراً باحترام هاتين الثقافتين الحيتين القائمتين ذلك الاحترام الذي تنظر به إحداهما إلى الأخرى . ويسترد (الشرق) عندئذ اعتباره في نظر (الغرب) .

كلمة « الروح الشرقى »

سألنى سائل عن رأى فى الوحدة العربية. فأحلته على آرائى السابقة
وقلت له إني لم أغير موقفى . فأنا على الرغم من رغبتى فى تكوين
شخصيات فكرية مختلفة ووحدات سياسية مستقلة لكل أمة من
الأمم العربية والشرقية ، فأنى أحب أن أتذكر دائماً أننا إزاء الغرب
لنا صفة واحدة تجمعنا وينبغى أن نحافظ عليها . فأوربا اليوم عندما
تبين لها خطر الحروب التى تقوض المدينيات ، قد ارتاعت وأرادت أن
تحافظ على مصير ماتسميه (الروح الأوربى) ، فأقامت من أجل ذلك
المؤتمرات دعى إليها كبار مفكرى الأمم الأوربية ليدرأوا الأخطار
التي تهدد هذا الروح الأوربى المريض . ونحن الشرقيين لنا من غير
شك كذلك مانستطيع أن نسميه (الروح الشرقى) . إن طابعنا الفكرى
وطريقة نظرنا إلى الأشياء ، وتقاليدها ، وإحساسنا بالجمال الذهنى ،
ومشاعرنا نحو مظاهر الطبيعة المختلفة ، وأسلوبنا فى التعبير عن حقائق
الأشياء ، كل ذلك ينم عن عقلية خاصة وعبقريية مستقلة لا ينبغى أن
تتحلل وتتدهش تحت طغيان موجة أقوى ! فإذا نادينا بالوحدة العربية
فإنما ذلك لندعم كلمة (الروح الشرقى) أمام كلمة ١٨٦١

أنداء بالوحدة العربية لهند صبرى كبرى
٦ لب هند صبرى كبرى
فرضى بل هذا لا معنى

أحياء الثقافة العربية القديمة

سأنتنى بمجلة عربية عن هذه المسألة فقلت :

تسألوننى كيف نعمل على إحياء ثقافتنا العربية القديمة ؟ وهل ماتت هذه الثقافة حتى نطلب إحياءها ؟ إن الثقافات والحضارات لا تموت ولكنها تهضم فى ثقافات أخرى وحضارات أخرى . فالثقافة العربية القديمة قد امتصتها واحتوتها الحضارة الأوربية القائمة ضمن الذى امنعت وهضمت . فمادة الثقافة لا تنعدم ولكنها تنحول إلى ثقافة جديدة وتدخل فى تركيب حضارة جديدة ، فالقول بأحياء الثقافة العربية القديمة أو الثقافة الإغريقية القديمة قول لا أستطيع أن أفهم له معنى . فالحضارات إنما تقوم على الحضارات . وهيكلك الحضارة القائمة إنما ينهض على طبقات متعددة من حضارات سابقة . فلوفرنا المستحيل وأردنا أن ننزل طبقات ونرجع إلى ثقافة قديمة بعينها وحالتها وكميتها للغة ، فماذا نجد فيها غير شىء أولى الى جانب ثقافة العصر الحاضر ! أما إذا كان المقصود من كلمة الأحياء لا إحياء الثقافة القديمة بعينها وحالتها وكميتها إنما المقصود إحياء المجد الغابر والسكانه والازدهار الذى لفت الأنظار الى الثقافة العربية القديمة فى عصرها ، فهذا شىء آخر ، وهذا أمر ممكن لو أننا عملنا واجتهدنا فى سبيل إحداث نهضة ثقافية يشعر بهزتها العالم المتحضر . ووسائلنا فى هذا هضم كل ثقافة موجودة

قديمة أو حديثة وإخراج ثقافة جديدة تنم عن روحنا وخصيتنا الشرقية،
تستطيع أن تقف جنباً إلى جنب مع الثقافتين العظيمتين الحاضرتين،
اللاتينية والانجلوساكسونية.

أما الوسيلة الفعالة لتوليد ثقافتنا الشرقية الجديدة فإن الطريق إليها
هو الطريق الذي اتبعته كل حضارة من الحضارات المعروفة أعني به :
« القيام بحركة ترجمة واسعة النطاق » ولا يغنى التامخض عن الترجمة .
فنحن باراء نهضة فكرية يجب أن تشيد على دعائم قوية . وكما أن
عصر النهضة الذى تلا القرون الوسطى فى أوربا قام على حركة ترجمة
المؤلفات الإغريقية ، وكما أن نهضة الثقافة العربية القديمة فى عصورها
الزاهرة قامت على حركة ترجمة المؤلفات الهندية والفارسية والإغريقية ،
كذلك نهضة الثقافة العربية الشرقية الحديثة يجب أن تقوم على ترجمة
أهمات المؤلفات الأوروبية المعتمدة فى الفروع المختلفة ، وهذه المؤلفات
من السهل معرفتها . فما من أمة متحضرة وما من لغة حية إلا اتخذت
فى كتب خالدة معينة بالذات لابد أن تعرف فى لغتها وفى كل لغة حية .
ففى فرع الأدب مثلاً لا نجد اليوم لغة حية ولا أمة متحضرة لم تنقل الى
لغتها نل أعمال « هوميروس » و (سوفوكلى) و (شكسبير) و (مولير)
و (جوتة) الخ وفى الفلسفة والعلوم والفنون أسماء كهذه يضيق
بى المقام عن تعدادها هنا . وهى على ككل حال معروفة لـ ككل
منقف . ولكن المهم هو إجماع الرأى فى الشرق العربى الحديث

على القيام بحركة ترجمة عظيمة واسعة . . . ولننفق في هذا السبيل
الاموال ، فان ربحنا سيكون عظيما ، وسنشتري بهذا حياة
لغتنا العربية ، وسنضع بهذا كل أساس نهضتنا الفكرية التي قد
يسجلها التاريخ كنهضة للفكر الشرق لاتقل في أهميتها عن نهضة
الفكر الغربى التي ختمت القرون الوسطى .

تحت مسمى المفهوم الشرق المعاصر الشرق
(Eastern Culture
Western Culture)
الشرق المعاصر

أثر أوروبا في أدبنا الحديث

سألتني كذلك مجلة شرقية أدبية عن مدى تأثير الأدب الأوربي في أدبنا العربي الحديث ، فقلت :

إن الحضارة لا تبلغ أوجها حتى تبسط جناحيها على العالم المحيط بها فتؤثر في مجرى الأفكار في كل شعب وقارة ، وتغير من طابع الأساليب المختلفة وتطبعها بروحها الخاص الذي جاءت به ، كذلك كانت الحضارة الفرعونية والإغريقية والرومانية والمسيحية والإسلامية الخ . . .

واليوم الحضارة القائمة هي الحضارة الأوربية ، ولعل الحضارة الأوربية أشد الحضارات نفوذاً في الشعوب على اختلاف ألوانها . ولعل ما يرجع إلى تسخيرها العلم والطبيعة في تيسير سبل المواصلات بما لم يعهده العالم من قبل ، فالسفن البخارية والطائرات السريعة والطائرات والراديو والسينما كلها وسائل عجيبة فعالة في سرعة إذاعة الأفكار الأوربية ونشرها . إن السكرتيرة الأرضية اليوم ليست إلا برقالة في مقلب هذا النسر الأوربي . ولا مناص لأمة من الأمم أن تجهل أو تتجاهل هذه الحضارة رضية أو كرهت .

لذلك كان من الطبيعي للشرق ولا سيما أمم البحر الأبيض أن تتأثر إلى حد كبير بالحضارة التي تهيم اليوم لاعلى البحر الأبيض .

وحده بل على كل بحار الارض. فاقول بأن الادب العربي الحديث تأثر بالفكر الاوربي هو البديهية بعينها. وينبغي لهذا الادب أن يتأثر بالحضارة الموجودة الحية إذا أراد أن يحيا وأن ينتشر وأن يفهم ويعترف به في الارض عامة وفي بلاد هذه الحضارة خاصة. والادب العربي في كل عصوره القديمة تأثر بالفعل بالحضارات المختلفة، وجرى في شرايينه الدم الفارسي والهندي والرومي.

والقول بأن الادب العربي الحديث كان أشد تأثراً بأوروبا بعد الحرب هو أيضاً قول يطابق طبيعة الاشياء. فالاتصال الوثيق بين الشعوب واحتكاك الافكار والمبادئ وتقدم المواصلات، كل هذا حدث بعد الحرب وبتأثير الحرب على نحو فجائي قوى يشبه الطفرة. ولقد أدرك الادب العربي من احتكاكه بأوروبا أن وسائل التعبير في الادب قد تطورت وأن الـ كـتـاب على اختلاف جنسياتهم قد تواضعوا على أن يلبسوا أفكارهم ثياباً متشابهة في أغلب الممالك المتحضرة كما ألبسوا أبدانهم ثياباً متشابهة هي القبعة والسترة سواء في ذلك الإنجليزى والفرنسى والرومى والايطالى. . . الخ. فكان من الطبعي أيضاً للادب العربي الحديث أن يتأثر بهذا اللباس الأدبي الشائع كما تأثر الزى الشرقى إلى حد كبير بازى الغربى. هل أن الزى أو اللباس شيء والروح أو الشخصية التى فى جوف هذا الزى واللباس شيء آخر. ومهما يكن اتحاد الإنجليزى والإيطالى والأسباني

والروسى فى شكل الزى فان الدم الذى يجرى فى شرايين كل منهم
مختلف كل الاختلاف .

لذلك أحب أن أقول لأدباء العربية الحديثة : لا تخشوا مطلقاً من
من إلباس أفكاركم الأتواب الأوربية على شرط أن يكون طابع هذه
الأفكار وروحها شرقياً محضاً . وأن يحس القارئ الأوربي إزاء أعمالكم
أنه أمام نفس غير نفسه وشخصية غير شخصيته وإن كان الرداء
ليس غريباً عليه لأن الرداء ليس ملصكاً لأحد : إنه ملك الحضارة ،
والحضارة وليدة الحضارات التي سبقتها . .

الأدب العربي في الماضي والحاضر

اعتماد الباحثون في الأدب العربي أن ينظروا دائماً إلى الماضي وأن يقصروا عليه كل جهودهم وأن يخصوه بكل التفاتهم ، زاعمين أنه لا أسلوب في العربية إطلاقاً إلا أسلوب الجاحظ ولا نثر عذب إلا عند ابن المقفع . حتى أدى هذا الزعم إلى حبس النشاط الذهني على آثار الماضي وإلى الاعتقاد بأن مجد الأدب العربي الذي لن يعود إنما كان في الماضي .

أثرت هذه العقائد في تفكير الشرق العربي ، وكانت هي علة الجمود العقلي الذي أصيب به الشرق على مدى أحقاب ، حتى شعر الناس كأن باب الاجتهاد قد أغلق فما عادوا يسمحون لمداركهم أن تتذوق غير الأدب القديم وإن لم يفهموا مراميهِ ويشعروا بملابسات حياته ، وما عادوا يسمحون لأدباء جيلهم أن يخرجوا عن دائرة تقليد هذا القديم وإن أحسوا من أنفسهم القدرة على إبداع ما يناسب روح العصر الذي يعيشون هم فيه .

غير أن التحرر الفكري الذي انطلقت نسائته أخيراً على ربيع الشرق قد عدل كثيراً من هذه النظرات ، فنحن اليوم لانحشئ أن نبذل تحت وحي الحاضر إنتاجاً يختلف عما أبدع تحت وحي الماضي ،

الزعم العربي

ولا يخشى الناس أن يتذوقوا ويعجبوا بفتاح الحاضر كما يفعلون بفتاح الماضي ، ولا نخشى أن نضع الماضي والحاضر في ميزان المقارنة وميدان البحث. نعم نحن اليوم قد تعلمنا أن نعتبر الأدب العربي شجرة واحدة نامية نستطيع أن ننقل عيوننا بين جذعها وفرعها وأغصانها وأمسها ويومها وغدها . . . بل إننا لا نتحرج اليوم من الاعتقاد بأن مستقبل هذا الأدب قد يكون أئنيق وأزهر من ماضيه على أن الجراءة في الحكم مازالت تعوزنا .

أذكر يوماً جاءني فيه أسنان من أساندة الأزهر فتحادثنا قليلاً في الأدب العربي فقلت له إن أساليبنا اليوم في الكتابة خير من أساليب كتاب العرب الأقدمين من بعض الوجوه . فنظر إلى دهشاً كأنه لا يصدق أذنه . فأدركت أن قداسة القديم مازالت تنسج على هذا العقل الجامد خيوط العنكبوت .

ولبثت وحدي أفكر في الأمر وأسائل نفسي : ما وجه العجب في هذا التفضيل . إني من المعجبين بفن الكثير من الأقدمين أمثال الجاحظ وابن المقفع والسنن مع ذلك لا أستطيع أن أقفى بفن هذا الحكم ، على أن من التسف أن تقوم المقارنة على هذا النحو . فنحن الآن في عصر مختلف كل الاختلاف عن المصور السابقة . حقاً إن إدراكنا اليوم للفن أوسع ولا ريب من إدراك الجاحظ وابن المقفع . كما أن إدراكنا إيشتين للعلم أوسع من إدراك فيثاغورس . هذا لا يمكن

أن يقوم فيه جدال . إنما الأمر الذي يصح أن نجادل فيه هو : أي الآداب وأي الكتاب استطاع أن يملأ عصره وأن يعبر عن روح عصره وأن يؤثر في عصره ؟ إنهم يقارنون أحياناً بين « فولتير » وبين « برناردشو » . في رأيي أن الأخير قد اكتسبت لديه من الوسائل الفنية ما لم يتهيأ مثله للأول . إن فولتير لم يبلغ قط في قصصه التمثيلية ما بلغه قصص برناردشو . ولكن أيهما استطاع بكتاباته أن يهز عصره هزاً ، وأن يحدث في تفكير عصر تيارات قوية وأن يفرض وجوده على العروش والنيحان ، وأن يلقى بدور الانقلابات المقبلة في نفوس الشعوب ؟ ثم سؤال آخر يجوز فيه الجدل : أي الأدبيين ، العربي القديم أو الحديث استطاع في جملته أن يقف الى جانب الآداب الأخرى المعاصرة ليؤدى معها رسالته إلى البشرية ؟ إن المقارنة بين أدب الأمس في ذاته وأدب اليوم في ذاته تؤدي غالباً الى ترجيح أدب اليوم . إنما المقارنة يجب أن تكون بين أدب الأمس في عصره وأدب اليوم في عصره . وهنا تختلف النتيجة بعض الاختلاف .

لا أحب مع ذلك أن أصدر أحكاماً سريعة . . فان الحكم يقتضى أسباباً مطولة . وإن المقام ليضيق دون ذلك . إنما أحب في ختام كلتي أن ألفت نظر هذا الجيل الى أن يأخذوا الأدب العربي الحديث على سبيل الجد وأن يضعوه موضع الدرس

الى جانب الأدب القديم سواء بسواء . وأن يكتروا من المقارنة
بينهما إذا شاءوا كما يقارن الإنسان بين الزهرة والزهرة في
شجرة واحدة . وبين الثمرة والثمرة في اعوام متعاقبة . فان في
ذلك تذكراً لهم بأن الأدب العربي كائن حتى يتطور ويتغير ويتلون
ويتأثر باختلاف الفصول والعصور !

كرامة الفسکر

القوة الحقيقية للقلم هي أن يستطيع أن : « يقول ما يريد وقما يريد أن يقول » . والرجولة الحقيقية هي أن يبذل المرء دمه وماله وراحته وهنائه ودعته وأطمئنانه وأهله وعياله وكل أثر عنده وعزيز عليه في سبيل شيء واحد : « الكرامة » والكرامة الحقيقية هي أن يضع الإنسان نفسه الأخير في كفة ، وفكرته ورأيه في كفة ، حتى إذا ما أرادت الظروف وزن ما في الكفتين أرجحت في الحال كفة رأيه وفكره .. كل عظماء التاريخ كانوا كذلك . بل إن مصر الفقيرة اليوم في العطاء قد عرفت ذات يوم رجالا كثيرين من هذا الطراز .. رجالا لم يترددوا في تضحية كل شيء من أجل فكرة ... والنزول عن كل متاع من أجل رأي .. يمثل هؤلاء الرجال رجحت مصر كثيراً في حياتها المعنوية والفكرية .. بل إنني لأبالغ إذا قلت أن الأمم لا تبنى ولا تقوم إلا على أكتاف هؤلاء .. وأن الخطر المخيف هو يوم تخلو أمة من أمثال هؤلاء .. نعم وأنه ليخالجنى الآن شيء من القلق ، .. فناموس اليوم هو وطر الفكرة بالاقدام ركضاً خلف الجاه الزائف والمال الزائل ، . لقد حق لنا جميعاً أن نسأل هذا السؤال : هل يطول غضب الله علينا فلا يظفرنا بهؤلاء العظماء الذين يستطيعون أن يردوا الاعتبار إلى قيمة الرأي ، ويظفروا النفوس من درن المادة ، ويميدوا

المثل العليا النبيلة إلى مجدها القديم ؟

* *

هذا قول قلته منذ أعوام ، وأقوله اليوم أيضاً . . وأنا واثق أن
في مصر عدداً كبيراً من العقلاء الذين يستطيعون تحييص المسائل
وبحث المشكلات وإبداء الرأي الذي ينفع البلاد . . ولكنهم
يطوون الرأي في الصدور ، أو يهمسون به في الآذان . ولا يعرضونه
بجرأة ، أو ينادون به في إيمان خشية أن يتعرضوا لهجوم ، أو يلحق
مصلحتهم ضرر موهوم . . هذا التنجي من الناصحين والا كفاء عن
المشاركة في توجيه الرأي العام ، هو الذي يوجد في مجال الآراء
حالة تشبه الحكم المطلق أو الدكتاتورية . . إذ تستبد فكرة واحدة
بعقول الناس ، ويطلق رأي واحد على تفكير الجماهير . . فتؤمن
دون مناقشة بالقول الغالب ، وتذساق دون وعي بالرأي الجارف . .
فنحن في حقيقة الأمر الذين نغرض بأنفسنا على أنفسنا الحكم المطلق
.. لا دستورنا ، ولا نظام الحكم لدينا . . نظامنا الديمقراطي
لا يمنعنا من الحرية . . ولكننا نحن الذين ننزل عنها راضين ،
لأننا لا نريد أن ندافع عنها أو ندفع ثمنها . . اتنا بفضل دائماً أن نقبل
رأي غيرنا الذي لا تؤمن به ، على أن ندفع في سبيل رأينا بعض
الجهد أو بعض الغرم . . ما من نظام في الوجود يكفل الحرية

لإنسان يخشى أو يكسل أو يهمل في إبداء رأيه الحر ! ..



إذا أردتم الحرية والكرامة الأدمية فافحصوا كل رأي بعقولكم ،
ولا تقبلوا جزافاً وبغير تفكير آراء غيركم ، حتى ولو كان أصدق
أصدقائكم . . .

إن السكوب على مروه ته مخنقر ، لا شيء إلا لأنه قبل بلاصعوبة
أن يضع أصدقائه في عنقه قيلاً وإن كان من ذهب ! ..

من النيل الى السين — ١

قرأت رسالتك إلى على وجه « الأهرام » ذلك الوسيط الصادق
بينى وبينك والرسول الأمين بيننا وبين الناس، نحمله ماشئنا وما شاءت
أفئدتنا من آمال وأحلام ، بل هو ذلك الحلم الزاجل لهذا العصر نطلقه
بين ضفتي نهرين ونافذتي قارتين

إنى أكتب إليك الآن هذا الرد وأنا أطل على النيل ، وقد
أخذ لون الفضة في هذا الشتاء ، وأنخيلك الآن واقعاً تنظر إلى السين
في لونه الفيروزي الصافي ، ماشياً الهوينى تتصفح بين آروان الكتب
القديمة المعروضة فرق حاجز النهر كما كان يفعل صديقك أنا تول فرانس .
نعم إنك تثير في نفسي ذكريات . رسالتك قد أعادتني إلى ذلك
الماضى . يوم كنت أقطع كل صباح ذلك الطريق بين كاتدرائية
نوتردام حتى جسر « دورسيه » في الضفة الشرقية ، لأترك كتاباً
حتى أتصفحه ، كان نصف تحصيلي العلم في أول أمرى من تصفح
الكتب خلسة بغير مقابل ، أنقط من كل كتاب فكرة أو فكرتين
كالصفر يلتقط من كل سنبلة حبة أو حبتين ، وأنحاشى أن ترانى بين
البائع المسكين وهو أيضاً فنان في أغلب الأحيان يهجمه اقتناء النادر
من المجلدات ويزهو بعرضها أكثر مما يهجمه أمربيعها . ولقد أضحكتنى
ذات مرة عبارة بارعة في كتاب مشهور كنت أتصفحه فباغتتنى

نظرة البائع فجمعت أن أطرح الكتاب بعد ذلك ، فاضطرت إلى شرائه بالمال الذي ادخرته لغدائي .

نعم لقد كنا هناك نجتمع أعقاب العلم من كل مكان كما يجمع في مصر الغلمان أعقاب السجائر ، إلى أن اتسعت أذهاننا بالمران فصرنا نلتهم الأسفار النهماً .

إن باريس عندنا لم تكن قط امرأة ، إنما كانت كتاباً مفتوحاً هو « سفر الحياة العليا » .

أما هنا . . فالليل جميل حقاً ، لست أنكر ذلك ، وإنى لأرى الآن طرف (الجزيرة) الممتد في الماء كأنه مقدم سفينة ، وأبصر فيها النخيل والأشجار خضراء داكنة كأنها ليل شعري يخفي تحت ستره المحبين ، ولكني لأرى على ضفتي هذا النهر الرحيب العظيم غير قصور صغيرة متناثرة بيضاء وصفراء وخضراء كأنها بعض طيور الماء ، جمال طبيعي لا ريب فيه ، ولكنك لا ترى فيه بعد يد الحضارة الذشطة ، فلا حواجز ممتدة ولا تماثيل منصوبة ، ولا كتب معروضة .

أعترف لك أنني لا أقرأ في مصر كثيراً ، وهل في مصر بعد شيء يدفع إلى القراءة ؟ إن مصر ليست كتاباً مفتوحاً ، إنما هي هيكل قديم مغلق يحوى كنوزاً ، قد ضاع مفتاحه فعليها قبل كل شيء أن نفتح بابها ، ونستخرج ما فيه ، ليس من الخير أن نظل طول الزمن نتغنى بمفاخر هذا الهيكل ونحن نؤمن على أعتابه ، ولكن المصلحة كلها

في أن نذكر أنفسنا دائماً بما فينا من كسل ونقص وخمول وأن نهب على أقدامنا للعمل .

وعلى ذكر العمل أريد أن أسألك سؤالاً :

أما زال المقيم في باريس يحس هذا الجو المعنوي المشبع بالنشاط الذي يغرى بالعمل المتواصل دون كلال ؟ لعل أهل مصر لا يعرفون هذا الجو ، وإنك لتستطيع أن تخدم بلادك لو وصفته لنا فيما تصف ، هذا الجو الذي ينتشر في كل مكان . في القهوة حيث ترى الجالسين إما يكتبون وإما يقرأون وإما يتحدثون حديثاً خافئاً سريراً كله عزم ثم يتناولون قهوتهم السوداء في جرعة أوجرعين ويخرجون قافزين إلى الأتوبيس أو هابطين إلى المترو السفلى لينصرفوا إلى العمل ، فلا جلوس مستديم في غير طائل كما نفعل في مقاهينا نخلق بأبصارنا في الرانحين والغادين ، ولا قهقهة عالية نصخب بها ونحن ننفخ دخان الشيشة ولا مناقشات مدوية في العلاوة والترقية ، ولا صيحات العريضة ولا ضوضاء النرد .

نعم . أو ليست تلك كل حياة الملايين من المصريين في أوقات فراغهم بعد عمل قليل لكسب اللقمة ؟ فهم بالقياس إلى ماتراه الآن حولك في باريس لا يمكن أن تسمى حياة . فالحياة هي العمل واللهو ، ونحن لا نعرف حتى كيف نلهو لأننا لا نعرف كيف نعمل ، ولعل مصيبة العاملين في مصر وهم ندرة أنهم لا يعرفون أين ولا كيف يلهون

بعد نهار شاق مملى بالانتاج ، فلا أوبريت فنية مصرية ، ولا مسارح
تلتقى فيها شמוש الهيئة الاجتماعية ، ولا صالونات لنساء عظيمات
تتقابل فيها أساطين البلاد ، ولا أندية ليلة راقية يعرض فيها ظرفاء
الأدب والشعر والفن كلماتهم اللامعة ونكاتهم الباردة وأخبارهم
ونواديرهم وأغانيتهم . لاشئ في ليالينا المصرية يمكن أن ينم عن الروح
المصرية والذوق المصري ، بينما كل شئ في الليالي الباريسية يدل
على الروح الباريسية والذوق الباريسية .

إن الحياة بمعناها الرحب العظيم لم تدب بعد في وادي النيل ،
إنما تلك الحياة الصغرى التي لا تخرج عن شؤون الأكل والشرب والمتعة
الوضيعة هي وحدها المعروفة الآن .

وبعد ، فاني أرجو لك إقامة طيبة في محيط تلك الحياة الحقيقية
التي أنت فيها الساعة ، وأرجو منك أن تفرص على كل دقيقة من
دقائقها وأن تروى ظمأك بحسنها العاوى وتشبع نفسك بجمالها الروحي .
وهنيئاً لك .

من رسالة إلى أحمد الصاوى محمد في عام ١٩٢٧ .

من النيل إلى السين — ٢

جاء في آخر رسالتك الماضية ذكر للأكل والشرب . وقلت
بحق إننا حتى في هذا أيضا لم نبلغ شأن الأمم المتمدينة ، صدقت والله
صدقت . إن الحضارة . كل شئ فيها موضوع تفنن وابتكار . إن الرجل
المتحضر هو الذى يعرف كيف يعمل وكيف يأكل يلهو وكيف . وما
من أدب من الآداب العريقة إلا وفيه فصل عن الطعام ، فإذا فتحت
« العقد الفريد » لابن عبد ربه أو « مقامات بديع الزمان » وجدت
أوصافاً تسيل اللعاب فى ألوان « السكباجة » و « الطهباجة » وإذا
راجعت كتاب « بول ريبو » الأديب الفرنسى عن فن الأكل
لوجدت فيه هذه العبارة الطريفة : « إن استكشاف لون جديد من
ألوان الطعام لأنفع للإنسانيه من استكشاف نجم جديد من نجوم
السماء » وإنك لتعلم فيما تعلم عنى أنى أحب الجيد من الطعام ، وإنى
كثير التبديل والتغيير للطهارة فبحق عندك إلا أكلت لى وباسمى
ثلاثة أزواج من « الحمار البر تقالى الأخضر » وطبقا من « الكاسوليه »
التولوزية التى أحبها ؟ ولا أوصيك بحساء البصل فانت أدرى منى
أين تجده وتطلبه . وبعد ! أما وقد فرغنا من أمر بطوننا فلنتجه إلى
شئون عقولنا . لقد راقتى حقا وصفك للاضراب العام فى باريس
وقولك إن تعطيل طرق المواصلات من ترام ومetro وأتوبيس فى بلد

كباريس لم يعطل لحظة نشاط الباريسيين . هذا صحيح إن ضرب باريس نفسها بمدافع الألمان أيام الحرب لم يؤثر لحظة في حياتها العقلية والذهنية والاجتماعية . فقد كان رجال العلم في معاملهم وقاعات بحثهم هم ، ينظرون إلى عالمهم اللانهائي من خلال المكروسكوب والفيلسكوب ورجال الأدب هم هم يستقبلون تحت قباب الجامعات الأدبية زملاءهم بذلك النثر الذي سيبقى على التاريخ . ورجال الفن هم هم يعرضون فنائيج ابتكارهم واتجاهات مذاهبهم في المعارض والصالونات ، والمسارح هي هي تعج بالمشاهدين والناقدين . . وأندية الليل هي هي بظرفها وشعرها وخفة روحها . .

أما في مصر ، فكل هذا غير معروف . فانه ليكنفي أن تنشر جريدة في صفحتها الأولى أو التاسعة خبراً سياسياً هاما حتى تجد مصر كلها من أقصاها إلى أقصاها لا تنكلم إلا في هذا الخبر ولا تقلق إلا بترديد هذا الخبر ، السبب في ذلك بسيط : إن حياتنا فوضى ، أو هي حياة أولية « سديمية » لم تتكون فيها عوالم منظمة متآلفة يعيش فيها الناس . فانك لا تستطيع مثلا أن تقول في مصر « عالم الأدب » و « عالم العلم » و « عالم الرياضة » و « عالم الفن » و « عالم السياسة » الخ . بالمعنى المفهوم لهذه العوالم في أوروبا . فان كل طائفة من هذه الطوائف عندنا لم تستطع حتى الآن أن تنظم نفسها تنظيماً يؤهلها لخصر جهودها المنتجة في منطقة معينة بالذات . وقد نشأ عن ذلك أن الطائفة التي في يدها القوة واللقمة وهم

رجال السياسة ، قد برز عالمهم كالشمس فطغى على الآخرين ، ومضى من الوجود تلك العوالم الأخرى النافعة التى كان ينبغى ألا تقل عنها إشراقاً . فنحن إذن لا نعيش كما تعيش الأمم الكبرى ، ونحن معنا على وضعه الحاضر مجتمع ابتدائي . فالى أن يهتم الناس بأشياء أخرى غير السياسة وأرقى من السياسة ، وكل شىء فى الوجود هو فى الحقيقة أرقى من السياسة إلى أن يعنى الناس بشؤون الفكر ولذات الفكر وينفقون فى الكتب والمتاحف والمعارض وقاعات المحاضرات بعض اللحظات . إلى أن يكون لرجل العلم ورجل الأدب ورجل الفن فى مجتمعنا عين الاحترام والاهتمام الذى يقابل به رجل السياسة ، إلى أن تكون المظاهرات الأدبية والعلمية عين الهزة : والضعجة التى تكون المظاهرات السياسية إلى أن نترك هؤلاء البضعة القليلة من السياسيين المحترفين يصيحبون ويصخبون فى نواديهم ! . وننصرف نحن المفكرين إلى نواديها ومجامعنا الفكرية ونحن الرياضيين إلى نواديها الرياضية ونحن المالىين والاقتصاديين إلى نواديها المالية والتجارية . إلى أن تتعدد نواحي النشاط فى البلد . وينذهب هذا النوم والحمول الذى شمل كل جانب إلا ذلك الجانب العقيم : السياسة . إلى أن يحدث كل هذا فلا أمل فى المجتمع المصرى . فلندع الله أن يتدارك هذه الأمة برحمته فهو مغير الأحوال والسلام !!

من مشكلات الفكر

أثارت صحيفة انجليزية مشكلة ليست بسيرة الحمل . . . وهي فيما يبدو من الظواهر الشائعة اليوم في كثير من الأمم . . . تلك هي مشكلة الأدباء والمؤلفين وموارد رزقهم . . . فاقدم كادت تنقرض الآن امطورة المؤلف الثرى . . . ذلك أن أزمة الورق في انجلترا ومشا كل النقد وقبوع الاستيراد الدولية انقصت الى حد كبير عدد المطبوع من الكتاب ، فلم يعد ربحه يكفي لاطعام المؤلف . . . وليس كل مؤلف يستطيع فوق ذلك أن يضمن لسكنا به للنشر ، حتى وان كان من المجيدين أو المعروفين . . . فان للناشرين حصة محدودة من الورق ، وعلى كل منهم ان يعدقاعة بمؤلفيه ، ويعين لكل نوبته في اسبقية الطبع . . . أمام كل هذه العقبات ماذا يصنع المؤلف لينتج ويعيش ؟ . . . استطلعت الصحيفة آراء طائفة من الأدباء . . . فأجمعوا رأيهم على أن تأليف الكتاب لم يعد يضمن رزقا لمؤلف . . . وان على الاديب أن يتخذ له حرفة من الحرف أو وظيفة من الوظائف أو عملا باحدى الصحف . . .

إنها حقاً لحنة أن يعجز الفكر الصرف عن أن يكفل لصاحبه حياة مستقلة في هذا العصر . . . ولكن ما هو الحل ؟ . . .

. . . في فرنسا تكفلت الحكومة عقب الحرب الاخيرة بشراء بعض مقالات الادباء ، لتقيهم شر الموت جوعا وجمعت توزع عنه المقالات

على الصحف ، داخل بلادها وخارجها قاصدة من وراء ذلك الى نشر الدعاية للثقافة الفرنسية . . . ولكن هذا ليس بالحل الطبيعي الذي تلجأ اليه حكومة في كل حين . . .

أما في بلادنا فالمشكلة قائمة على أشدها . . . فالحكومة أبعد من أن تعنى بتأليف أو مولفين . . . ومع أن عدد الأدباء المنقطعين لحرفة القلم قليل . . . إلا أنهم قد تركوا المصائرهم يدبرون لأنفسهم أمر معاشهم . . . ولما كانوا لا يهتمون عملاً غير حمل القلم . . . فقد احترقوا الكتاب على كره منهم . . .

ترى ماذا يحدث لو التفت اليهم الحكومة قائلة : « يجب ان تنقطعوا للفكر الصرف كل الانقطاع . . . أما معاشكم فاني سأدبره لكم . . . »

إذا فعلت الحكومة ذلك ثم اقتضت من الأدباء بعدئذ الثمن . . . وادارت تسخيرهم في خدمة أهدافها السياسية أو اهوائها الحزبية . . . فان الحال تنقلب شراً مما كان . . . وتخير اللاديب أن يموت جوعاً من أن يبيع روحه لشيطان السلطان . . . ولكن . . . لنفرض أنه وجدت الحكومة التي تترفع عن هذا الصغار . . . ولنفرض أيضاً أكثر من ذلك أنها تورعت عن التدخل في إنتاج الأديب وأنها جردت من سلطانها حارساً يحمي حرية الأديب في التفكير والابداع . . . لنفرض أن هذه الحكومة أو (العنقاء) يمكن أن

توجد . فماذا يكون الحال ؟ . .

ما من شك الأدباء سيتوفرون على الفكر الخالص وحده . .
وسيكرسون جهودهم لخدمة الفن الرفيع ، بعيدا عن كل اعتبار . .
وسيحلقون في أدبهم وفنهم وتفكيرهم تحليقا . . قل من يتابعهم فيه
أو يلاحقهم في التصعيد الى قممه .

إنه الفكر المستكفي بذاته قد أمتطى صهوة السحب . . ليشرف
من معائه على جموع الناس . .



على هذا الوضع يخيل لي أن المسألة قد حلت . . . ولكن
صوتا من أعماق الجوع يرتفع قائلا : أنسيتم أنكم في عصر (الجماعات)
البشرية المتبقطة التي أصبحت لها حقوق في كل زاد مادي ومعنوي ؟
بأى حق تجبسون عنها هؤلاء الأدباء في تلك الاقفاص المرتفعة . .
وتدثرونهم بهذه السحب القصية ؟ لماذا تحرموننا نحن الشعب من
هذا الاتصال المباشر بهذه العقول الممتازة ؟ نحن الناس في جموعها والوفها
لا تصل أيدينا الفارغة الفقيرة الا إلى الصحف السيارة والمجلات
المنقشرة . . أتريدون أن نقرأ فيها الفارغ الفقير من الكلام في
في كل الاحوال . . أليس من حقنا أن نلقى فيها أدبيا من
هؤلاء الأدباء الذين تريدون أن تجهلهم وقفنا على الخاصة ؟ . . الى
منى هذه النظرة الارستقراطية القديمة اليها ؟ أن العالم قد تغير . .

وأن الأديب الذى ينكرنا . . ويأبى أن ينفعنا وأن يمد يده إلينا . .
 ولوفى أعماق طينتنا وفى حماة وحلمنا وفى وصمة جهلنا . . هو أديب
 متترف بغيض . بل هو كمدعى النبوة المترفع الكاذب الذى يخشى على
 ثيابه أن تدنسها أوساخ الطريق . . وعلى سمعته أن تلطخها خطايا
 الفجرة . . فلا يهبط من مقصورته العالية لينتمش من الجاهير ولونسمة
 واحدة صالحة للهداية أو الرقى . . . »

*
*
*

بين هذين الصورتين ماذا يصنع الأديب ؟ . . وإلى أيهما يتجه ؟
 إلى الفن الخالص الذى يناديه من أعلى . أو إلى الجوع العطشى التى
 تناديه من أسفل ؟ ! أو يظل معلقا كالقرد . . يد فى العلو ويد فى
 السفلى ؟ ! . .

مشكلة أخرى لا بد لها من حل ! .

بين جيلين !

جاءني ذات صباح أديب شاب .. وقدم إلى رواية مصرية ألفها
ونشرها في كتاب .. وهو مزهو فخور منتعش ، كشجرة اتت ثمارها
فحملت كتابه في يدي بعناية وحنان .. أقرأ العنوان .. ثم شرعت
أقلب بعض الصفحات .. وإذا حركة بالباب تبليغ أذني .. فرفعت
عيني .. فوجدت فتاة لطيفة المظهر أنيقة الملبس .. مشرقة الوجه ..
وضاحة الجبين .. تستأذن وتدخل وتجلس .. قبل أن تمنحني وقتا
لرد أو جواب .. ولم تنتظر مني كلاما .. فقد انطلقت هي تقول بلسان
فصيح وجنان ثابت :

— إني قارئه ساخطة نائرة .. جئت أوجه إليك سؤالاً واحداً .
ماذا تصنع الآن ؟ .. مضى العام تلو العام دون أن يظهر لك كتاب
في السوق .. أهى الصحافة التي شغلتنك ؟ ..
وأشارت بيدها إلى جو الحياة الصاخبة الذي يحيط بمكتبتي ..

* * *

والتفت إليهما لأجيب .. ولكن الشاب سبقني صائحاً بحماسة :
— أمن الضروري أن يؤلف هو وينشر ؟ .. أليس في الدنيا
كتب أخرى جديرة بالقراءة تظهر في كل حين ؟ !
فنظرت إليه الفتاة دهشة .. ثم نقلت بصرها إلى كالمسائلة ..

فوجدتني أهر رأسي موافقا مصادقا مؤمناً . . فعادت إلى الشاب قائلة :

— إنى أسأله هو عما . . يشغله ؟ ! .

فقال الشاب بقوة وتدفق :

— مالنا وماله ! فليشغل نفسه بأى شئ . . خيراً من أن يملأ

مائتين أو ثلاثمائة صفحة يحملها قصة يتقدم بها في كل موسم . . حتى

يقال أنه دائب على الانتاج . . ما كان أسهل عليه أن يكرر نفسه . .

ويخرج حلقات لا تنتهى على نمط « عودة الروح » أو « عصفور من

الشرق » أو « الرباط المقدس » أو المسرحيات الاجتماعية والذهنية

أو يستغل على الأقل كتب التاريخ ، يستخرج منها قصصاً لا تنفذ

وينشر في كل موسم مائتين و يشاء أمثالك . مجرد النشر أو الكسب

أو إثبات الوجود أو إظهار النشاط ! . .

— أترأه يستنكف من فعل ذلك ؟ . ألا يرى له جدوى ؟ ! .

— اطرحي عليه هذا السؤال . . ها هو ذا أمامك ؟ !

* * *

فالتفتت الى الفتاة لحظة . . ثم انصرفت عني يائسة إلى الشاب.

— إنه يهز رأسه دائماً . . أجب أنت .

— ولماذا أجيب عنه ؟ . . ولماذا تصرين على الكلام في شأنه

إذا أردت فاني أحدثك عن نفسي . . فأنا ولا شك لم بكل تفاصيلها

وأنا أديب ومؤلف وروائي و . .

— عجباً .. ولكنني لم أجيء لأتحدث إليك !
 — هذا خطأ منك .. أيتها الأنسة .. لو كنت في مكانك
 لسألت توا عن يكون هذا الشاب الموهوب الذي تدخل في الحديث
 بهذه الشجاعة .. وطابت أن يقدم إلى .. وأن يتحدثني عن كتابه
 الذي ظهر حديثاً .. لأطمئن على أن الأدب بخير .. سواء ألف
 صاحب هذه الحجرة أو لم يؤلف .. ونشر كتباً أو لم ينشر .. وعاش
 أو لم يعيش ..

— أنها حقاً لشجاعة .. بل جرأة .. انك تمداخل على نحو ..
 — لا تنظري إلى « صاحب الحجرة » .. إنه لن ينفذك مني
 ولن يتكلم .. ولن يبت برأى .. إنه كما ترين يجهل دائماً بهز
 رأسه ! ..

— هذا صحيح .. وأنت هل تعرفه منذ زمن طويل ؟
 — أعرفه منذ خمس عشرة سنة .. كنت يومئذ في الخامسة
 عشرة ، وكان أهلي في البيت يتحدثون عن « عردة الروح » ولكنني
 لم أحفل بقراءتها شخصياً إلا عند ما بلغت العشرين .. في ذلك
 الوقت نشأت مع كثيرين من أقراني في الجامعة وشباب جيلي وشبيت
 معهم وهم يغلطون ويتناقشون في الرواية المصرية الطويلة التي شق
 طريقها .. ويقسمون بحماسة الصبا أنهم سوف يمضون في هذا السبيل
 ويخرجون يوماً روايات مثلها وخيراً منها عن حياتنا القومية وقد بر

بعضهم بوعده ونشر قصصا على جانب كبير من الطرافة والاتقان ..
 واستطيع أن أوكد لك أيتها الأنسة .. أنى أحد هؤلاء النابغين ..
 أقولها لك بكل صراحة .. وبكل تواضع ..

— إني متأكدة من صراحتك وتواضعك .. وعلى الرغم من كل
 شيء .. ثق أنى بدأت أهتم بأعمالك .. ولكن .. ألا تسمح لى قبل
 ذلك أن أعرف شيئا قليلا عن الأمر الذى جئت اليوم من أجله ؟ !
 — تفضلى .. ماذا تريد أن تعرفى ؟ ..

— السؤال بالطبع ليس موجها إليك .. أردت أن أعرف كيف
 يترك منه العالى لينزل إلى المكتابة فى الصحف ؟

— والله لقد حيرتموه .. إذا ارتفع بفنه قلتم كيف لا يهبط إلى
 الناس : يشعر بشعورهم ويدرس أحوالهم ويعرف أنباءهم ويعرض شكواهم
 ويدافع عن حقوقهم .. فإذا فعل .. عديم فقلتم أين العزلة التى يكتب
 فيها لطائفة من الخاصة .. نصيحتى لك أيتها الأنسة أن لا تناقى هذه
 الاسئلة السخيفة .. لا تؤاخذينى .. ان من يكتب لمئات الألوف
 ويستطيع أن ينفعهم بعض النفع ويرتفع بهم بعض الارتفاع لمجرد
 خدمة عامة ..

— وفنه ؟ !

— ما من فنان يستطيع أن يهمل فنه وإن أراد .. ولعلك
 تخططين بين الفن وبين إنتاج الكتب فى كل موسم ! تخططين بين

الفنان والمعلم وبين المنتج والتاجر . . . ماذا تسمين ذلك الذي يسكت عند ما ينبغي له السكوت . . . عامين أو ثلاثة أو خمسة أو عشرة . . . يدرس خلالها نفسه من جديد ، ويزن تأملاته ، ويختزن تجاربه . . . ويراقب أحوال الناس وتطورات المجتمع . . . ويراجع أعمالنا القديمة . . . ويبحث ، صامتا صابرا ، عن طرائق للتعبير الفني جديدة . . . ان النشر يا آنسى سهل . . . ولكن الصعب هو البحث الطويل في الظلام ! . . . لعلك تجدينه الساعة مشغولا بالبحث عن نوع من الفن لا علاقة له بكل ما عالج من قبل . . . « الفن طويل والحياة قصيرة » ! تلك كلمة « جوته » المشهورة . . .

ان من يريد أن يمسك بتلابيب « الفن » . . . في حياته المحدودة يجب أن يقفز فوق كل تكرار لا غناء فيه . وأن يركض خلف مرآبه في كل طريق حتى القبر . . .



وسكت الفتى . ونظر إلى كأنه يسألني : هل أصبت ؟ فتلقى منى الجواب هزة من الرأس أيضاً . . . أما الفتاة فقد أكبرت كلام الشاب الأديب وقالت :

— اسمح لي أن أبدى إعجابي بفهمك للفن . . . وأن أسألك عن كتابك . . . فاني مشوقة إلى قراءته . . . في أى المكتبات أجده ؟
— آسف كل الأسف يا آنسة إنى لم أجد هنا إلا بنسخة

واحدة .. ولكن إذا أذنت فاني أرافقك الآن إلى أقرب مكتبة ..
وأقدم لك نسخة ممضاة .. الديك ما يبتيك هنا الساعة ١٩ ؟
لا داعي لبقائي .. نستطيع أن نذهب توأ ..

ونَهَضت في الحال وحيثني تحية سريعة .. وانصرفت .. ونَهَض
الشاب لينصرف في أثرها بعد أن حياني هو الآخر تحية سريعة ..
ولم يكده يبلغ العتبة حتى بدا له رأى .. فعاد أدراجه إلى واقترب
منى هامساً راجياً .

-- المكتبات الآن مغلقة .. أكون شاكراً لو تفضلت ورددت
إلى هذه النسخة لأهديها إليها .. أما أنت فساأحضرك نسختك
غداً .. إن المستقبل أولى من الماضي ! ..

فما تمالكت أن مردت يدي إليه بالنسخة .. وأنا أخذت له بعيني
راضياً باسمها :

-- صدقت ! وإني لأراه مستقبلاً مشرق الوجه وضاح الجبين ! ..

في الستيا والاجتماع

هستريا السياسة

أسمع هذه الضوضاء التي ارتفع صداها إلى أبراجنا العاجية
فأفسدت علمينا هدهونا وتفكيرنا . لعلك قائل معي هي « هستريا
السياسة » أصيب بها هذا البلد دفعة واحدة . نعم . الأمر لا شك
خطير ما دام قد استطاع أن يصل خبره إلينا فيؤثر في أعصابنا
وإنتاجنا نحن المعتصمين في أبراج الفكر الهاديء وإذا وصل
ببخار « السياسة » إلى تلك القمم الباردة في أمة من الأمم فأنذر
إذن بالويل وتنبأ بأن رأس الأمة قد لعب به الداء . . . فما رأس
الأمة في حقيقة الأمر إلا مفكروها المجردون . وإنك لتذكر
ما كان من أمر « جوته » شاعر الألمان يوم زلزلت الدنيا بثورة
يوليو الفرنسية ! فقد دخل عليه صديقه الأديب « اكرمان »
يزوره ويتحدث إليه ، فبادره جوته صائحاً : « لقد أرسل البرلمان
حمه واشتعلت النار في كل شيء » فقال اكرمان : « نعم إنه
حدث جليل هذه الثورة الفرنسية » فعجب جوته وقال ساخراً :
« كلا . لست أعني تلك الثورة إنما أتكلم عن تلك المساجلة العلمية

التي نشبت في موضوع « أصل الأنواع » بين العالمين « كوفييه » و « جفرى سانت هيلير » تحت قبة الجمع العلمي .

هنا أيها الصديق كل مجد ألمانيا في الماضي بل كل مجد البشرية العليا . إن زعد الثورة وصياح الثوار لم يبلغ صداد أبراج العلم وقم الفكر . هذا الرأس قد ظل ثابتاً ، لم تلعب به « السياسة » ، هادئاً لا يتأثر بانقلاب أو فتح أو حرب إلا ما وقع في ميدان العلم والفكر . ولقد انطفأ فعلاهب الثورة الفرنسية ومضى بدخانها ورماد أشلائه وبقي رأس « جوته » شاحخاً مضيقاً في عليائه ، رمزاً للفكر الإنساني الخالد .

ينبغي أن نتدبر قليلاً هذا البلاء ، خوفاً على رؤوسنا أن يصيبها دوار « السياسة » فلا تبصر شيئاً في هذا الضباب الشامل ، وخشية على الناس أن يتمكن منهم الداء ، فيذهب بالبابهم ويدفعهم إلى القتال والتناحر ويغري الشباب منهم باقتراف الإثم وارتكاب الجريمة ، ويشغل المنتجين منهم عن الإنتاج ويصرف الأمة قاطبة عن العمل المفيد ويوقف تلك النهضة التي كادت تعود إلى هجمة مضطربة تحت أقدام كابوس .

إنا لا نستطيع أن نصيح في الناس ، وإذا صحنا من هذا العلوفنا صيحاتنا إلا همسات تمر فوق بحر من العراك

والصياح والهتاف تعج به وتصخب أمة بأسرها ، هل لك
في أن تنادى معي من برجك : أيها الناس اتركوا السياسة
للساسة ، فانهم ليسوا في حاجة إلى حناجركم ولكنهم في
حاجة إلى هدوءكم وانصرفكم إلى أعمالكم !

من مداخلات مع منصور فهمي عام ١٩٣٧

جموح الديموقراطية

ما تقول هو الواقع . إن تفشى المادية وجموح الديموقراطية لمن أظهر الأمراض الاجتماعية اليوم . ولعل الأولى نتيجة الثانية . فقد فهمت الديموقراطية فهما غريبا . فهي اليوم مطية ذلول لمن يريد سرعة الوصول . ولقد تزاخم الناس فعلا على ركوبها فجمحت بهم وانطلقت تهديم الأخلاق وتحطم المثل العليا . إنك لن تجد اليوم كثيرا من طراز أولئك الرجال الذين عاشوا متعفين لا مطمع لهم غير تلبية نداء الحق والواجب في صوت جهير وخلوص ضمير . لقد مضى ذلك الزمن الذى كان يجلس فيه العالم قابعا في أطواره يلقى الحكمة على سامعيه ويجرى عليه انظير لبعيش ، ثم يموت ولم تعرف يده ثقل الجنيهاات . فقد كفهاها أن عرفت ثقل القبلاات يضعها عليها رجال الحكم والسلاطان . مضى ذلك الزمن الذى كنا نرى فيه الجاه والمال عاجزين عن انتزاع الطبيب من واجبه الانسانى ، والقاضى من عدله المنزه ورجل الفقه من فتاواه المجردة ، والأسناذ من بين تلاميذه ودرسه ورجل الدين من بين تابعيه وزهده . الآن نستطيع بترقية أو بملادة لا تمدو جنيهاات أن نلعب بلب أكثر هؤلاء وأن نصرفهم عن ميادين نشاطهم الطبيعى وأن نفرهم بمناصب لا صلة لها بعملهم ولا بفضلمهم ، وهذا ما يحدث كل يوم فقد ماتت المثل العليا . وهذا ما أقفر دور العلم والفكر ودور

الدين والزهد ودور العدل والفقہ ودور الفن والأدب من أربابها وزج بهم إلى التناحور والتسابق في ميادين المادة والوصول . هنا أيها الصديق كل الخطر فارتفعت في المادية والوصولية في جسم الأمة لا يخيفني بقدر ما يخيفني دنو الداء من رأس الأمة ، أي خاصتها وقادة الرأي فيها ، إن هذا الرأس هو المحتاج الآن إلى العلاج . ولكن كيف ؟ ما هي تلك العملية الجراحية التي تخرج من هذا الرأس صديد المادية وتطهره بماء القناعة والروحانية ؟ كيف نستطيع أن نذكر الناس اليوم أن أقوى إمبراطورية على الأرض وقفت ذات يوم وخلفها أساطيل البحر والجو مكتوفة اليدين حائرة أمام رجل هندي خلفه عنزة ثق أن في الامكان صنع الأعاجيب لو استطعنا أن نعيد إلى الخاصة حسن ظنهم (بالأخلاق) وصدق تقديرهم (المثل العليا) . ينبغي أن يؤمن الناس بالأحد أعظم ولا أقوى من الرجل الذي لا يشتري بمال ولا بجاه ، نعم إن من ملك قلباً حاراً ولساناً حراً ولم يكن له في زينة الحياة مطمع فهو وحده الذي يستطيع أن يسود العالم . ألا ترى معنى أن (المثل العليا) المحطمة في حاجة إلى أن توضع من جديد شاحخة فوق عروشها الرخامية الجميلة ! !

الإيمان بالمثل العليا

تسألني عن أقرب الأسباب لإعادة حسن الظن بالأخلاق، وتقوية
الإيمان بالمثل العليا. هنا كل المسألة. ولست أدري من يبدأ بالعمل
ومن يعطى المثل. أهم الأفراد أم هم أصحاب السلطان؟ ولقد ذكرت
عمر بن الخطاب وزعمه في متع الدنيا وفي يده مفاتيح السكون وتحت
قدميه دول وعروش. هذا حقيقة خير مثل لصاحب السلطان ينبغي
أن يضرب للأفراد والمحكومين كي يقتدوا به ويؤمنوا بأن العظمة
الحقيقية لا تعرف الحرص على المادة. ولكن الدرس والمثل قد يأتي
أيضاً من الفرد المحكوم وما إخالك تنسى موقف ذلك العالم الفاضل
الشيخ الطويل يوم دعاه الخديو فأبى إلا أن يذهب إليه بعباءته البالية
الممزقة التي عليه فلما ألح عليه الناصحون أن يرتدي عباءة جديدة تصاح
فيهم: أهو يريد رؤيتي أنا أم رؤية العباءة، إن أراد العباءة فها هي
ذي أحلوها إليه وإن أرادني أنا فاني أذهب إليه كما أنا وما إخالك
تنسى كذلك موقف علماء الأزهر يوم دعاهم نابليون الظافر وأراد
أن يزين صدورهم بالنياشين، فراحه أن رأى أيديهم الغاضبة قد
انتزعت نياشينه وألقت بها إلى الأرض في حضرته، فلم يغضب
وابتسم وعلم أنه أمام رجال يحترمون أنفسهم. وهو أول من يدرك
أن الانتصارات والجيوش لا قوة لها ولا حيلة أمام رجل يحترم نفسه.

فأنت ترى معي أن الدرس الخلقى قد يأتى من صاحب السلطان كما يأتى من الفرد المحكوم . . . المهم فى الأمر أن يوجد المثل الحى للأخلاق الحرة النزيلة العظيمة فى أى طبقة وأى بيئة وأى زمان . وأعود فأجيب على سؤالك الآن فى غير تردد أن أقرب السبيل إلى إعادة حسن الظن بالأخلاق والمثل العليا هو وجود المثل بالفعل . هو ظهور رجل واحد ومثل واحد حتى نراه بأعيننا ونسمع صوته بأذاننا ونلمسه بأيدينا ونقبه بأفئدتنا . ولكن . . . هل كل مجتمع قد يبر على إخراج مثل هؤلاء الرجال أو أن أولئك لا يظهرون إلا فى مجتمعهم للظهور ؟

من مساجلات مع منصور فهمى عام ١٩٣٧

داء الكلام

هنالك أمر آخر يدعو إلى قلق على مستقبل نهضتنا . إن أول شيء يحزنني حقيقة وأرجو أن يكون قد استرعى نظرك على الأقل هو أن « الكلام » له عندنا دائماً كل القيمة ، أما (العمل) فلا يسأل أحد عنه . إن (الشكل) هو الذي يعنيننا ونخلب منا اللب . أما (الجوهر) فلا نسكاد نلتفت إليه . إن (الوسيلة) تنقلب عندنا دائماً إلى (غاية) لعلك قرأت في كتابي (يوميات نائب في الأرياف) كيف يهتم رجال الضبط أحياناً بتنميق تحرير المحاضر وملء القسائم أكثر من اهتمامهم بالقبض الفعلي على الجناة . ولعلك رأيت في محيط حياتنا العام كيف أن عشرين عاماً قد مضت على . صر ونحن لا عمل لنا إلا الصياح بله أفواهنا هاتفين بكلمات الحريه والاستقلال . ولقد نبذنا كل شيء ، وتركنا كل عمل من أعمال النهضة الحقيقية وجلسنا نتقاذف أقوالاً ونردد كلمات . إلى أن شاء القدر آخر الأمر أن يتخذنا من هذا النكاسل والقعود فقال : (هاكم الاستقلال) فقلنا : (هات) ثم أخذنا هذه الكلمة وجلسنا كما كنا لا ندرى ماذا نصنع بها . نحن نقع دائماً في الحيرة كلما تركتنا الظروف وجهاً لوجه أمام العمل المنتج ، وكأننا لا نجد فرجاً ولا مخرجاً إلا في الصياح والجدل . إنني لأخشى أن تظهر في الأفق كلمات أخرى أو أن

نختار موضوعاً جديداً للتصايح يشغلنا من جديد عن المضي
الجدى في حركة النهوض المنشود . آه . العلة كلها ها هنا :
إن روح العمل وعبقريته الخلق ثمار لم تلق بسد بذورها في
أرض مصر ! حاجتنا شديدة إلى هذا الصنف من رجال العمل
الذين لا يصرفهم عن الخلق والبناء شيء في الوجود . إنك
ولا ريب تذكر نابليون في غزوته لروسيا ، وكيف خذله
البرد والجليد ، غير أنى أريد منك أن تذكر ماذا فعل هذا
الرجل عندما وحد نفسه محصوراً في تلك الأصقاع لا يدرى
ماذا يفعل . أسئغفر الله . إن الرجل العظيم يعرف دائماً
ماذا يصنع ولا يطبق مطلقاً أن يقعد دون أن يخلق شيئاً . فهو
لم ينفق وقته في صياح ولم ينتظر الغد مستلقياً على ظهره ، ولكنه
شمر في الحال عن ساعديه للعمل وجعل وهو في كربه وضيقه
يفكر في إصلاح بلاده ، ويضع بالفعل وهو بعيد عنها ،
الأسس اللازمة لتنظيم الحركة الفكرية والاجتماعية فيها : وكان
من بين تلك المنشآت مشروع الكوميدي فرانسيز إحدى
منائر الثقافة الفرنسية في العالم ، وكذلك فعل هذا الرجل
في مصر يوم حطم خصومه أسطوله وقطعوا صلته بوطنه ،
فلم يضعف عزمه ولم تفتر روح العمل فيه وقال . (لم أصنع
في مصر حضارة أخرى ؟) وشرع من فوره يبنى دعائم

المعاهد العلمية ويضع أحجار النظام والاستقرار لطرائق الحكم
وأسباب العمران . ولكن : من المسئول عن موت روح
العمل المنتج في هذه الأمة ؟ أم رؤوسها الذين عودوها
سياسة الكلام ؟ أم هي الأمة نفسها التي لا تحب ولا تحتمل
بعد غير هذا الصنف من الطعام ؟ ! ! .

من مساجلات مع منصور فهمى عام ١٩٣٧

البرنامج اولا

مادامنا قد اتفقنا على أن « العمل » قد حان له أن يحل محل « الكلام » وما دمت يا صديقي قد طلبت إلى أن أمضي في ذكر التفاصيل . فأني أقول لك إن أول ما ينبغي عمله هو وضع « البرنامج » وقد ترد على بأن « البرنامج » هي أيضاً مما يدخل في منطقة (الكلام) ولكن ما الحيلة إذا كانت حتى هذه الخطوة الأولى في سبيل العمل لم نخطها بعد . إن كل النهضات التي قامت بها الحكومات الحديثة في بلادها خصوصاً بعد الحرب قد تمت وفق منهج مرسوم وتحدد لتنفيذهازمن معلوم . فقالوا : هذا (نظام خمسي) وهذا (نظام عشري) تبعاً لعدد السنوات التي قرر الإخصائيون أنها لازمة لظهور المشروعات فأين نحن من هذا ؟ أتستطيع مثلاً أن تقول لي هل وضع نظام ثابت لنحو الأمية من البلاد في ظرف سنوات معلومة كما فعلت العراق ، حتى نرتب على هذا الحدث نتائج اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية فواجه بها هذه النهضة القادمة ؟ أيمكنك أن تقول لي هل هنالك مشروعات اقتصادية درسها الخبراء وقرروا لها زمناً تتم فيه وتخرج للبلاد في نهايته وسيلة جديدة من وسائل الانتاج تزيد الثروة الأهلية الزيادة التي تتعادل مع نمو عدد السكان وتسد الحاجات المنتظرة والمطالب المستقبلية ؟ أو أننا سنظل دائماً كما نحن وكما كنا منذ أن أدخل الخديوي امحمامل

في مصر زراعتي القطن والسكر لا تفكر في مصدر جديد للثروة ينفعنا في الغد ؟ ؟ وهل في مقدورك أن تقول لي هل درس الباحثون سياسة ثابتة للتعليم الجامعي وخطة واضحة لتوجيه الثقافة العامة في نهضتنا ؟ وإلى أي مدى ننحون نحو الحضارات القائمة أو أننا سنبقى حيارى في حداثق المعرفة لاندرى ماذا نأخذ وماذا ندع ! فأنت ترى إنه لم يوضع شيء بعد — حتى على الورق — لتحديد العمل والزمن الذي يقتضيه التنفيذ لمختلف فروع نهضتنا ، بل إنه لم ينظر إلى الآن حتى فيما يجب البدء به حالا من هذه المرافق المختلفة تبعاً لحاجة البلاد حتى لا يضيع علينا الوقت فهل أنت مازلت من المتفائلين ؟ !

من مساجلات مم منصور فهمي عام ١٩٣٧

فساد الدولاب

حتى على فرض فراغنا من رسم الخطط ووضع البرامج ، فالباقى بعد ذلك كثير ، بل إن مجرد السير الآن فى طريق العمل عسير . إذ بمن نعمل ؟ إن الأيدى العاملة قد لحقها الفساد ، فهى مثل تروس الساعة المختلة تدور فى غير حدود ، فيد الوزير أحيانا تمتد إلى الأنظمة والأوضاع تقلبها رأسا على عقب دون أن تصغى إلى كلام أصحاب الاختصاص من الرؤوسين ، وإن الموظف مهما يكبر ومهما ينبغ لا يمدو أن يكون تابعا يتلقى أمر رئيسه ويؤمن على رغباته وإن علم أن فيها الضرر لمصلحة البلاد . وهكذا أهدرت الشجاعة الأدبية . وجبنت النفوس عن تحمل المسؤولية . بل إنه ليحدث أكثر من ذلك . فإن المسألة الفنية لتعرض أحيانا على لجان من الاختصاصيين يبحثونها فى شهور . فيأتى وزير يضرب بنتيجة البحث الطويل عرض الحائط ويؤثر بقله الأحمر مناقضا ما جاءت به اللجنة ، كما تهاو يتحدى تلك العقول ليظهر أن رأيه « المرتجل » لساعته خير وأحكم من آراء المختصين بعد درس شهور . ولكن الأدهى والأمر أنه يجد فى أكثر الأحيان من بين موظفى وزارته ومن بين هؤلاء الإخصائيين أنفسهم من يقول له « آمين ، آمين » فهل يمثل هذا الدولاب الحكومى نستطيع أن نسير فى تنفيذ خطة أوبرنامج ؟ فالى أن يعلم الوزير كيف يحترم رأى

موظفيه المختصين . وإلى أن يفهم هؤلاء الموظفون كيف يحترمون آراءهم . إلى أن توزع الأعباء والمسؤوليات بين الوزير ومعاونيه ، ويحل النظام محل الفوضى في علاقة الرئيس بالمرؤوس ، فلن تكون الأداة الحكومية صالحة بعد للسير الجدى في تنفيذ مشروع من المشروعات ، وإنى أسوق إليك مثلاً صغيراً للأداة الحكومية الصالحة ، ما ذكره يوماً صحفى أمريكى قال إنه ذهب لمقابلة وزير خارجية إنجلترا قبيل إعلان الحرب العظمى ليسأله عن موقف إنجلترا من ذلك الحدث الهائل الذى يهدد العالم فوجد الوزير مطرقاً فى مكتبه وإلى جانبه وكيل وزارته الدائم غارقاً بين تقارير فنية ووثائق تاريخية . فرفع الوزير رأسه وقال للصحفى : « تسألنى عما إذا كنا سندخل الحرب ؟ ! لست أنا الذى يستطيع أن يجيب الآن عن هذا السؤال الخطير . ثم أشار إلى وكيل وزارته وقال : « أن وكيل الوزارة يبحث الموضوع من كل وجوهه وهو وحده الآن صاحب الكلمة وعليه تقع النتيجة ونتيجة أبحاثه هى وحدها التى ستثير لنا الطريق كسياسيين ، فنقرر إذا كان من واجب بريطانيا العظمى دخول الحرب ؟ ! »

الحرب بكل الأسلحة

كارثة أخرى من الكوارث التي نسكبت بها مصر ، هذا الغلو والإغراق في الخصومات . فإذا اختلفنا على رأى فنحن أفيال هائجة تدوس كل شيء وتحطم كل شيء . إن في كل بلد راق حدوداً مقدسة تقف عندها الخصومة ، وأسلحة لا يلجأ إليها أبناء الوطن الواحد . فاقحام الدين مثلاً في ميادين الخلاف السياسى أمر لا يمكن أن يحدث اليوم في أى شعب ديموقراطى متحضر . فالديموقراطية ليست كلمة تقال في الخطب لأنها جميلة ذات رنين . ولا هى بناء شامخ يسمونه البرلمان . لكن الديمقراطية هى روح المساواة والإخاء وحرية الفكر المكفولة للجميع . وإن كل طعنة تصيب كتلة الوطن فتحللها إلى عناصر أو طوائف إنما هى طعنة مسمومة تصل مباشرة إلى قلب الأمة وصميم الديمقراطية . كذلك ينبغى أن نتذكر دائماً أن الخصم في المبدأ هو مواطن مصرى قبل كل شيء . وأن خصومة المبادئ ليس معناها القضاء المبرم على الأشخاص بكل الأسلحة ، وتعطيل كل أدوات المنفعة التي قد ترجى منهم في وقت من الأوقات . فليس من حق مواطن أن يقضى على مواطن آخر قضاء يخرج به إلى الأبد من ميدان النفع العام . وإنما الغرض الذى يسعى إليه الجميع هو خدمة الوطن وحده . فلتسكن الخصومة في

حدود التنافس على القيام بخدمة المجموع . وليعتقد كل في خصمه
أن مجزه يوماً عن خدمة بلاده على الوجه المطلوب لا يمنع من استطاعته
ذلك في يوم آخر ، فلتكن إذن السهام المصوبة من طرف إلى
طرف في غير مقتل من الشخصية والأدمية والشرف فليس من
مصلحة الوطن أن تفرش أرضه بصرعى وقتلى من أبنائه العاملين
إنما المصلحة هي في أن تتداول السواعد إدارة العجلة ، وأن تهبأ
لكل يد الفرصة لخدمة البلاد .

نعيم الانتخابات

معذرة يا صديقي إذ أقطع اليوم سلسلة مناقشاتنا الإصلاحية
لأحدث في خاطرة مرت بي ، ولعلمها مرت بك . فالأفكار الآن لا يشغلها
غير أمر واحد : الانتخابات . يخيل إلى أن موسم الانتخابات نعيم
لكل الناس إلا للمتقدم إلى الانتخاب : ويل لهذا المتقدم . إن كل
خطوة يخطوها إلى الميدان نفقة وغرامة . فهو لا يحرك رجله قبل أن
يدفع مائة وخمسين جنيهها « رسوم الامتحان » ثم يسير فاتحاً جيبه بالمال
وعيون به الحرص والحذر وبقه بالكلام والخطب والوعود . أما نحن
معشر النظارة و (المتفرجين) المحايدون فهو لنا تسلية أمتع من سباق
« الدربي » وإني لأرى الناس حولى مبتسمين يتحدثون في أخبار
هذه « الملهة » بلذة واهتمام . وأرى فئة العارفين والحقائق يستعرضون
المرشحين ويوازنون بينهم كما يوازن أهل الخبرة بين كرام الجياد
وهي تنبخر في المضمار فوق العشب الأخضر قبل بدء السباق . على
أن النعيم الحقيقي فيما أرى هو من نصيب الفلاح المسكين . هذا الخلق
العارى القدمين الذي يجوع أكثر الأسبوع ، ولا يرى وجه القرش
إلا مصادفة ، كما نرى نحن وجه الحظ عابراً في طريق الحياة . هذا
الذي يسمونه إنساناً بحكم النوع وهو في الحقيقة لا يسترعى التفات
إنسان . هذا الآدمي المهمل الذليل لا يرد اعتباره ولا تعود إليه
آدميته إلا في أيام الانتخابات : فان « صوته » الضائع مع الريح

كأنه صوت كلب ضال ، هو اليوم « صوت » له خطره وله سعره وله طلابه وله من يجرى خلفه ويقدره قدره ويدفع فيه نقوداً . وهذه المعدة الخاوية التي لم يدخلها غير الفجل والجبن ذى الدود تنتظرها لليوم الولاثم وتذبح من أجلها ذوات الأجنحة والقرون .

وتلك الأقدام الخافية التي لم تعرف غير المشى خاف حمير « السباح » توضع اليوم تحت تصرفها السيارات « والتاكسيات » تنقلها من حفلة إلى حفلة . نعم إنها لا تحسب من عمر الفلاح ، وهو بذكائه يعرف أنها لا تدوم فهو يستمتع بها من غير غرور ، ويراها تزول فما يأسف ولا يزيد على أن يقول :

— كانت أيام (استنخاب) ركبتنا فيها (كنبابل) وأكلنا (زفر) ودخلت جيوبنا (نقدية) .

من يدري لعل فريضة (الزكاة) التي ذهبت مع الزمن قد عادت اليوم في ثوب جديد . نعم إن لم يكن من فضيلة الانتخابات إلا أن تشتري صوت الفقير بالذهب وتسد فيه بالطعام ، وتركبه مالم يركب وتره مالم يرويحيطه بمظاهر العناية والاحترام ولو إلى وقت قصير لكفى بها فضيلة . إن الانتخابات في نظري ليست حتى الساعة في هذا البلد مظهرًا من مظاهر الديمقراطية . ولسكنها أول معلم يفهم الفلاح أولاً معنى الحياة الإنسانية ويندقه طعم اللادمية .

(شركة مقاولات) الانتخابات

نعم يا صديقي . لقد خطر لي أن في الإمكان إنشاء مثل هذه الشركة تسهيلات للعمل فان من المرشحين من قد يكون مثلي ومثلك في براءة الحمل الوديع لا يعرف كيف ينال من خصومه ولا كيف يمدح نفسه ولا كيف يضحك على ذقون الناخبين . فما أحسن لمثلنا من أن يتوجه إلى مثل هذه الشركة ويتفق معها على (المقاولات) ويدفع (العربون) وينذهب إلى منزله فينام ملء عينيه وتقوم هي بكل ما يجب من إقامة السرداق وتأجير الخطباء وإعداد الولائم وجمع المعلومات عن فضائح الخصم ومثالبه الشخصية الخ الخ وما على مثلي ومثلك بعد ذلك إلا أن يذهب إذا شاء خفية على سبيل حب الاستطلاع ويجلس في سرداق الاحتفال الذي تقيمه الشركة فيرى ويسمع اللذيذ الطريف . . يرى خطباء الشركة قد قاموا أو اعتلوا المنصة واحدا تلو واحد ، يوسعونه مدحا ويسردون تاريخ حياته الحافل بكل جليل ومجيد . ويتكلمون في ذمته وطهره وكفايته ونزاهته وهو لم يره ولم يروه مرة قط . ثم يرجون على خصمه فيطعنون فيه الطعن المروءة ويذكرون من خصاله الذميمة وأعماله الخبيثة وخياناته وسفالاته ما تشمئز منه النفوس . وما تكاد تختتم هذه الحفلات على خير أو شر حتى تقدم الشركة (فاتورة) الحساب . فإذا استكثرت المبلغ

أقسموا لك أن الشركة قامت بنفقات باهظة وأن خصمك وحده
كلف الشركة (شتم) بما يساوي مائة جنيه إلى هنا لا بأس . لكن
إذا خطر لك أن تسير قليلا في البلدة لوجدت عجبا . فان سرادقا
آخر قد نصبته عين الشركة لخصمك هو أيضا . وقد قام فيه خطباء
آخرون من قبل الشركة يمدحون الخصم ويفسلون عنه مالحقه في
السرادق الأول وينزلون بك أنت كل تهمة وكل عيب ويلصقون
بك من (الشتم) ما يساوي مائتي جنيه . فاذا ذهبت غاضبا إلى
الشركة قالوا لك :

— يا حبيبي حضرتك (زبون) وحضرته (زبون) !!
فاذا صحت محتاجا ابقسموا لك في أدب بما معناه أن : (لا فضل
لزبون على زبون إلا بال...))

هذه الشركة الخيالية غير موجودة من حسن الحظ على هذا
الوضع . ولكن من يدري . لعل الحال في جوهره يجري أحيانا على
هذا المنوال فان ما يسمونه (حفلات) الانتخاب يؤدي غالبا إلى مثل
ذلك بدون أن نقصد . وإن يد (التنظيم) هذه إذا دخلت في مسائل
الواجب والضمير فانها تتجه غالبا إلى فم الساذجين فتزحمه بألوان
من الطعام يضيع معها صوت الواجب والضمير !!

العراس

ترى ونحن على هذه الحال من البراءة والسذاجة لوحدثتنا النفس
المملوءة بالنزول من أبراج فكرنا العاجية والجلوس تحت قبة البرلمان
الذهبية ماذا كنا نخطب قائلين للناخبين ؟
أما أنا فاني كنت أقول هكذا :

سادتي الناخبين :

باسم الديمقراطية أقدم إليكم ملتصقاً ، عطفكم ، إني أحب
الديمقراطية ، ومن ذا الذي لا يحب الديمقراطية ؟ تسألوني ما معنى هذه
الكلمة التي تسمعونها هذه الأيام كثيراً ؟ تعريفها بسيط « إن
الديمقراطية هي أن رهطاً من الجياع الحفاة يمنحون مرتباً شهرياً قدره
أربعون جنيهًا لرهط آخر من الثروة العتاة » ! لعل هذا المنطق يدهشكم ،
ولكن تلك هي الحقيقة ! هنالك أعجب من ذلك . فان جوف الحقيقة
مملوء دائماً بالغرائب لمن أراد الغوص عليها . إن بيننا معشر المرشحين
وبينكم معشر الناخبين سوء تفاهم كبير . فاننا نطلب إليكم أن
تخدمونا وأنتم تحسبون أننا وجدناكم نخدمكم ، أنتم تظنون البرلمان هو
المسكان الذي نتكلم فيه عنكم طول الوقت وعن جوعكم وفقركم وجهالكم
ونبحث تحت قبته كل يوم عن وسائل رخائكم ورقبكم ، ونحن نرى
في تلك القبة الذهبية شرفاً رفيعاً لمن استطاع أن يقتصر له تحتها قعداً

وترى في عضوية المجلس لقباً تتوج به أسمائنا ونزين به (بطاقتنا) .
 إن عضوية البرلمان في نظرنا ليست إلا عربة (الرولرويس) التي نرفع
 بها مركزنا الاجتماعي في أعين الشعب . ونحن إذ تنفق المال في هذا
 السبيل إنما تنفقه ونحن معتقدون أننا نشترى به وظيفة أولقياً أو مقاماً ،
 فإذا ما ظفرنا بما نريد بفضل أصواتكم ، ووجدنا أيديكم العارية
 السمراء تحملنا إلى داخل ذلك المكان ، فاننا نتربع فيه كالعراس في
 (القترينات) ، ومهما صحتهم وناديتهم وصرختهم بعد ذلك فاننا لانسمع
 أصواتكم لأن بيننا وبينكم حاجزاً من زجاج ولن تستطيعوا أن تلمسونا
 أو تقربونا ، ولكنكم تستطيعون أن تشيروا بأصابعكم من خلف البلاور ،
 فنحسب ذلك منكم إعجاباً ، قترداد صلفاً وتيهاً !

أيها النخبون : عجباً ، إني حقاً لعلى غاية السداجة إذا أقضى
 إليكم بكل هذا في خطبتي التي على أساسها أنتخب . ما العمل الآن ؟
 أنتخبونني برغم ذلك ؟ لعل صراحتي على الأقل تشفع لي ؟ !

الشحاذون

إن تعاقب الوزارات السريع في مصر ، يقذف اليوم على أفارين الفراغ بعدد وافر من أصحاب (المعالي) لا يصنعون شيئاً غير الانتظار في (ميادين) السياسة ، ممدودي الألف . ينتظرون ماذا هؤلاء المتعطلون ؟ ينتظرون دورهم في العودة إلى الركوب .

نعم . إن (الحكم) أصبح الآن مثل أرجوحة (الخيول الخشبية الدائرة) التي يركبها الأطفال في مقابل مليات ، ولو أعطى طفل ألف ملجم لأنفقها كلها في هذه اللعبة اللذيذة ، فهو يحب الركوب لمجرد الركوب فوق هذا الحصان الخشبي المطلي بالذهب ، الملون بأزهي الألوان الخادعة ، وإن دوره ينتهي ورأسه يميل من الدوار فلا يفارق إلا وقد أنزله صاحب الأرجوحة على الأرض ، فيظل واقفاً بلا حراك ينظر إلى حصانه يدور بغيره ، وفي قلبه الصغير حسرة ، وفي عينيه الزائفتين علامات الصبر النافذ ، إلى أن تنتهي الدورة فيخفق قلبه أملاً في أن يعود إلى الركوب ، وهكذا دواليك !

أما الفائدة من ذلك فلا شيء غير اللهو والسرور فهو متى امتطى صهوة الحصان الخشبي تملكه الغرور ، وظن أن هذا غاية الأمل وأنه قد وصل . ويلعب برأسه دوار « الأرجوحة » ، أو دوار الساطلة الباطلة و « الغرورية » الكاذبة ، فيقنع بذلك ولا يفعل شيئاً غير

ازدراء الواقفين في الانتظار وهو يمر بهم من البرق متعاليًا متصايحًا
صياح اللذة والظفر !

فالحياة في مصر هـو في هـو ، وتعطل إلى جانب تعطل ، وفراغ إلى
جانب فراغ . الجميع من شبان وسياسيين ، وقادة ومقودين ، لاعمل
لهم غير التطلع إلى خيول « المناصب الحكومية » الخشبية وهي
تدور ! وهذا الروح العام قد أثر في روح الشعب كله ، فنحن لانكاد
نرى طرقات مصر خالية من أناس أشداء يتطلعون إلى موائد المقاهي
ويمدون أيديهم يطلبون شيئًا ، لقد سرت روح البطالة والسؤال في كل
طبقات الشعب ، الجاهل منها والمتعلم ، وكدنا نعتقد أن مصر قد نسيت
أن في الوجود شيئًا يسمى العمل والكسح والاعتماد على النفس ، إن
مصر قد أصبحت بلدًا تخفق عليه راية « التسول » العام ، وهنا الخطر
الدائم ، ولا أبالغ إذ قلت إن روح « الشحاذة » موجود في كل نفس
مصرية في الوقت الحاضر ، فالوزير الذي تسول طويلا في انتظار
منصبه لا يكاد يدخل مكتبه كل صباح حتى يرى هو الآخر أفواج
المنتظرين من أصحاب السؤال يمدون أيديهم ليعطيهم مما اعطاه الله ،
فيثقلون كاهله بطلبات النقل أو التعيين أو الترقية أو العلاوة أو إلغاء
عقوبة أو التماس منحة ، ويضيع الجزء الأكبر من عمل الوزير اليومي
في التخلص من هؤلاء السائلين .

ويمكنت هذه العادة المردولة إلى حد نرى معه بعض الناس

يفتظرون حتى يسألوا جيرانهم الجرائد ليقرأوها « شحاذة » وإلى حد أرى معه أنا المؤلف كل يوم من يسألني نسخة من كتيبي (شحاذة) ولا أستطيع أن أجلس في مكان حتى أسمع من حولي أصوات الالحاح في سؤال شيء من الأشياء

حقيقة إن الحياة في مصر أصبحت لانطاق ، فاما أن يتغير هذا الروح العام وإما أن نياأس ونحكم على هذا الشعب أقسى الأحكام . على أنى أعود فأقول دائما إن الذنب في كل هذا واقع على كاهل القادة وحدهم من رجال الحكم والسياسة ، فهم الذين علموا الشعب كله وغرسوا فيه روح البطالة والتسول والصياح ! ولو أن الشعب رأى رءوسه ورجالاته يعملون في سكون ، للحجل وعمل هو أيضا بغير صخب ولا صخبنا حقيقة شعبا متحضرا يعمل ولا يتسول .

أريد أن أضع تحت أنظار ، وزرائنا ، مثل أبي بكر يوم ولي الخلافة ، فقد واصل عمله في بناء الدولة الفتية حتى رضى واطمأن ، فجهز إبله ذات صباح ، وأراد أن يخرج في تجارة له ، فاعترضه الناس دهشين :

— كيف تخرج في تجارتك وأنت الخليفة ؟

— وكيف أعيش وتلك صناعتى ؟

نعم ، هذا الرجل العظيم لم يكن يعتقد قط حتى ذلك الوقت ، أن سياسة الدولة عمل يرتزق منه ، إنما هو في نظره واجب محتوم عليه كعضو من أعضاء الأمة ، أما الارتزاق وأسباب العيش فينبغى أن يكملها عمل آخر وكدح آخر !

الأحزاب والشعب

سألتني إحدى المجلات السياسية عن رأيي في أحزابنا المصرية ومدى قيامها بواجبها نحو تحسين حال الشعب . فقلت :
— إن المفروض في ممثلي الشعب ، أن يتقدموا إلى المقاعد النيابية ، ببرامج ثابتة واضحة ، محدد فيها بالدقة ، الخطط ، ووسائل التنفيذ ، لمطالب طبقات الشعب المختلفة التي يمثلونها ولكن الذي يحدث اليوم هو غير ذلك ، فإن كل مشروع حيوى يهم الشعب ، إنما يصدر عن جهات أخرى غير ممثلي الشعب ! ولم نعد ندري ، فيم يمثل هؤلاء الممثلون الأمة ؟ خذ مثلاً ، مشروع مقاومة الحفاء ، ما كان أحرأه أن يكون جزءاً من برنامج حزب من الأحزاب إن كلمة أحزاب ، كما تفهم في مصر ، تطلق في الحقيقة على سبيل التجوز ، إذ ليس في مصر حزب ، بالمعنى الحقيقي لكلمة حزب ، كما تفهم وتستعمل في النظم الديمقراطية الصحيحة إنما في مصر « فرق » منفصلة تسمى أحزاباً لا هم لسكل فرقة من هذه (الفرق) إلا (توزيع) المقاعد البرلمانية ، والحصول على المناصب الوزارية ، وتنظيم حركة (تذاكر) الانتخاب أما برنامج (الرواية) فليس من هم أحد التفكير فيه ! فالأمر في ذلك يسير على نمط حفلات التمثيل (وتمعن بها) الذين يركزون كل نشاطهم ،

في مسألة توزيع المقاعد ، وتحصيل قيم التذاكر . . . أما مسألة (البروجرام) والغرض من الحفلة وما إلى ذلك ، فلا يلتفتون اليه ، ولا يجعلونه من شأنهم ! . . . وإني لأحب هنا أن أقول ، إنه قد آن الآن ، لأن يسأل الشعب عن البراميج ، شغل المقاعد .

إن الشعب اليوم ، قد تغير في نظري ، وإن عقليته قد تكونت ، وأصبحت له رغبات حيوية تمس صميم غذائه اليومي ، وحياته المادية . . . إنه يطالب اليوم أن يعيش ، لامعنيا فقط ، كما كنا ننادى بالأمس ، ولكن ماديا أيضا ، عن طريق اللقمة المتوفرة للملايين من المحرومين . — ألم تتجه العناية في هذه الأيام إلى طبقات الشعب الفقيرة ؟ — هذا صحيح . ولقد كثر جمع الصدقات ، ونشطت حركة التبرعات . . . ومهما تكن الدوافع إلى ذلك ، فهي على كل حال ، عواطف كريهة ، تم عن تيقظ روح الأريحية في نفوس ذوى الفضل من الأغنياء والقادرين . على أنه ينبغي لنا ، مع ذلك ، أن نقتساءل : إلى متى نظل في مصر ، ونحن نملك فيها نظاما ديمقراطيا ، نعتقد أن إصلاح شؤون الطبقة الفقيرة . . . معناه التصديق والاحسان ؟ وإلى متى ، ونحن لدينا برلمان ، لا نجد فيه ممثلين للملايين الطبقات الفقيرة ، يدافعون عما تراه هذه الطبقات منهضا لها ، مصلحا لحالها ؟ ما معنى الديمقراطية إذا لم تكن هي تمكين طبقات الشعب كلها على اختلاف مراتبها ومطالبها — من الدفاع عن نفسها بنفسها

تحت قباب المجالس النيابية ؟ !

ما من برلمان ، فى أى بلد ديمقراطى فى العالم ، يعرف هذا الوضع الذى نحن عليه . . . لأنه ما من أحزاب فى العالم تكونت هذا التكوين الشخصى المرتجل كأحزابنا المصرية ، ذات الصبغة الشخصية الواحدة المتشابهة ! .

فى البلاد الأخرى أحزاب ، ذات مبادئ مقررّة ، كل منها يدافع عن حقوق طبقة من طبقات الأمة ، بمن ضمن تمثيل الطبقات المختلفة على نحو يكفل التوازن بين المصالح . بينما أحزابنا ، على تعددها وكثرتها ، لا تمثل فى حقيقة الأمر ، غير طبقة واحدة ، هى طبقة الملاك . . . هى التى نسمع صوتها فى البرلمان ! وهى التى اتخذت لنفسها صفة القوام على الطبقات الأخرى . وهى التى تستطيع أن تمنع وتحرم الطبقات الأخرى ، حتى من حق الاعتراف بنقائباتها التى تنظم شؤونها ، وتدافع عن حقوقها ! !

وبحضر فى هنا ، مثل أحب أن أذكره ، فقد وجدت فى حانوت حلاقة ذات مرة ، حلاقين أحدهما يعمل إلى جانب الآخر ، ويتقاضيان أجرين متساويين ، الأول مصرى ، والثانى يونانى ، فعلمت شيئاً عجيباً . فقد قال لى العامل المصرى إنه وهو فى بلاده ، لا يستطيع أن يعلم أبناءه بالجحان ، ولا أن يستشفى بالجحان . وإنه لا يجد أحداً ولا هيئة تعينه على تكاليف العيش . . بينما زميله اليونانى يعلم أولاده كلهم بالجحان ، فى

المدارس اليونانية . ويستشفى هو وعائلته بالمجان في المستشفيات اليونانية .
لأن هناك هيئات ونقابات يونانية ، تعنى آتم العناية ، بمساعدة العمال
والأجراء اليونانيين . . . وقد روى لى هذا العامل المصرى أيضاً «
أنه ذهب بابنته الصغيرة يوماً إلى مدرستنا الأولية ، فوجد عاملاً مصرياً
آخر ، قد عجز عن دفع مصروفات ابنته ، على ضآلتها « عشرة قروش
شهرياً » فاضطر إلى المودة بها إلى البيت ، مما حزنه نفس زميله ،
فأخرج « أجره اليومى » من جيبه ودفعه من أجله .
لأشك أن أكثر الناس يوافقوننى على أن هذا الوضع للأشياء يجب
أن يتغير .

الفكر والشعب

سألتنى كذلك مجلة سياسية أخرى :

— هل ترون أن الكتاب الاجتماعيين في القرن الماضي كانوا

هم قادة الإصلاح في أوروبا وأمريكا ؟

— بالتأكيـد . بل لا يزال الكتاب حتى اليوم هم الذين يمهـدون

السبيل للإصلاحات والانقلابات الاجتماعية المقبلة . وإنى أرى أن كتابات

روائى مثل شاراس ديكنز كان لها الفضل فى حمل ساسة انجلترا من

محافظين وأحرار وعمال على وضع المسألة الاجتماعية فى رأس برامج

أحزابهم . واليوم بالذات برغم الحرب وأهوالها لا يفتأ ويلز و برناردشو

و برستلى يرسمون الاتجاهات التى ينبغى أن يتجه إليها بعد الحرب

لا الشعب البريطانى وحده بل البشر كافة . فهم يبعون انقضاء عهد

الشقاء الاجتماعى و بزوغ عهد يستطيع أن يعيش فيه كل فرد حياة

جديرة بالكرامة الآدمية ، فلا إغراق فى البؤس ولا إغراق فى الترف

بل نظام يقوم على التوازن الاجتماعى والتضامن والتعاون . نعم

الكتاب والمفكرون هم قادة الإصلاح ، وهم واضعوا أسسه وخططه

فى كل زمان ومكان .

ولئن كانت حركة الإصلاح الاجتماعى فى مصر قد تأخرت حتى

اليوم فذلك سببه تقصير الكتاب والأدباء . إنى أنهم يملء فى

الأدب المصرى بهذا الجرم .

إن الأدب في مصر لم يكن إلى عهد قريبة غير حلية عاطلة في معاصم الأدباء . لقد كان يعيش هؤلاء الكتاب لاقط على هامش المجتمع بل على هامش حياة الآخرين من أصحاب الجاه أو الثراء . لم يكن الأدب في مصر إذن أداة تسجيل وتوجيه لشئون المجتمع ، ولم تكن أقلام الكتاب أبواقاً توقظ النائمين ، ولكنها كانت معازف ينعس على أنغامها المترفون . وإذا كان هؤلاء هم كتاب أمة وهذا هو أدبها فلا عجب إذا ظلمت حال المجتمع المصرى على ما نراه اليوم . .

على أن الأمر بالضرورة قد تغير الآن . وإنك تستطيع أن تقول إن الأدب في مصر يتجه في الطريق الصحيح ، وإن كثيراً من الكتاب المعاصرين نشروا كتباً وأفكاراً تنصل بصميم المجتمع ، وإن آراءهم تسمع وتحترم وتؤثر أحياناً في اتجاهات الحياة العامة . . كنتم أول من اقترح منذ عامين إنشاء وزارة الشؤون الاجتماعية في حديثكم المشهور عن النظام البرلماني . وهامى ذى قد أنشئت .

— إنى اقترحت أن يعدل اسم وزارة الأوقاف واختصاصها وتعمل « وزارة الأوقاف والحياة الاجتماعية » بهذا النص ، وكانت فكرتى في ذلك أن يتسنى تحويل أموال الأوقاف إلى وجوه المنافع الاجتماعية المثمرة كالملاجئ والمستشفيات والنوادي الرياضية الخ . . . ولكن فكرتى قد أدت إلى إنشاء وزارة مستقلة لشئون المجتمع

فضاعف ذلك التفات الناس إلى الفكرة الاجتماعية في ذاتها . وكان في مجرد وجود هذا الهيكل الرسمي المخصص للمسألة الاجتماعية أقوى دعاية لهذه المسألة في انحاء البلاد . مما جعل الشعب كله يهتم بالمسألة الاجتماعية بعض اهتمامه بالسياسية . وأصبحت تثار في البرلمان قضايا الفلاح والعامل وحقوقهما في حياة إنسانية معقولة ، وحصة الفقير وحقه في معونة الغنى . وأصبحنا نسمع كبار الأمة يتحدثون عن ضرورة الرقي بمستوى حياة الشعب . وكثرة المحاضرات في كل مكان وتكونت جمعيات الإصلاح . وارتفعت أصوات الرحمة من القلوب وكلمات العدالة والانصاف من الأفواه ، كلها مجمعة على أنه ينبغي وضع حد لما نراه من استئثار مئات من أهل هذه البلاد بالخيرات وترك الملايين في جوع وعري كالسائمات . ولكنني أقول باعتباري كاتباً إن الأمر لم يعد في حاجة إلى توجيه فإن حال الشعب الآن لا يختلف فيه اثنان وإن قادة الرأي ورجال الأمة ومفكراتها يعرفون علل الشعب أتم معرفة ويوضحونها ويصفون لها العلاج . . وفي كل يوم يزداد عدد هؤلاء المفكرين والدعاة وتنسع دائرة المصغين إلى رسالتهم . إلى أن يأتي اليوم الذي تصبح فيه المسألة الاجتماعية هي المسألة الأولى في الدولة ، لها صحافتها ولها سياستها ، وعلى أساسها تتقدم الأحزاب إلى الحكم ، ويكون النجاح أو الإخفاق في تحقيق برامجها هو الذي يبقى الوزارات أو يسقطها .

فها أنت ذا ترى ما أرمى إليه : أن المسألة الاجتماعية عندنا هي في طور « الهواية » ولن تدخل في طور « العمل الجدى » إلا إذا طالب بها الشعب نفسه . . ولما كنا في نظام ديمقراطى فان الشعب عندئذ يكون أحزابه ويفتخب ممثليه طبقاً لهذه المطالب ، فالى أن تصبح إذن المسألة الاجتماعية في مصر ذات تأثير مباشر في أداة الحكم كالمسألة السياسية سواء بسواء ، فليس لنا أن نقول إن مصر مسأله اجتماعية على الإطلاق .

(كادر) المقامات

إني مقر للتخفيض الذي حدث في كادر المرتبات . فقد آن لهذا الخلق الذي يسمونه (الموظف المصري الكبير) أن يتواضع لله وللناس هذا الآدمي الذي خلقه الله بمواهب تساوي عشرين جنبها في الشهر فقدرت له الدولة مواهبه بمائة جنبه الشهر . هذا الآدمي الذي ألفت به الطبيعة على الأرض ليزرع بسواعده العارية عملا مسؤولا ويحصد ثمرا معقولا . فاذا هو قد انزع بين أوراق فارغة على مكتب مساحته فدان ليحصد آخر كل شهر غلة ٥٠٠ فدان . هذا الآدمي الذي صنعت له أجيال الشباب المصري في نفوسها تمثالا ذهبيا تعبد به فصرفها عن الالتفات إلى المغامرات الحرة العظيمة التي قام بها أشخاص اسمهم (فورد) و (روكفلر) و (كروب) بل حتى أشخاص في المحيط المصري اسمهم (عدس) و (بنزين) و (موصيري) هذا المثل الأعلى الحكومي الذي غرسته في نفوسنا المرتبات الضخمة لعمل (الروتين) الفارغ ، هو الذي أفقدنا عدتنا من الرجال الأكفاء المنتجين ، وهو الذي أضاع من أيدينا ميادين الثروة الحقيقية فاحتلتها الأجانب الأحرار أصحاب النشاط الواقفون بالمرصاد تخفيض آخر ينبغي أن نفكر فيه بعد أن انتهينا من كادر (المرتبات) ذلك هو كادر (المقامات) .

(مقاماتنا) أيضاً متضخمة أكثر مما ينبغي . تضخم غير طبيعي وهو ما قد يسمى في عالم الطب بالانتفاخ وفي عالم الاجتماع (بالنفخة) وكلاهما فيما اعتقد شيء واحد . وعلمته واحدة . وكلاهما إذا فتح بالشرط وجد بداخله (هواء) فهي مجرد أسماء لا معنى لها وهي لا ترفع ولا تخفض ولا ينبغي لها أن تفعل . ويكفي أن ننظر حولنا فلا نجد أمة واحدة من تلك الأمم المجيدة التي تعج بالعظماء في مختلف الفروع والأعمال قد صارت على ما نسير عليه نحن الأمة الصغيرة الفقيرة . فان (مستر) (تشمبرلين) هو بلا شك من أرفع رجال الأرض مقاما في العصر الحاضر ، ومع ذلك قد يشارك (مستر) جون كساري المترو في انمن لقبه المتواضع . و (مسيو) دلاديه هو اليوم من أقطاب العالم ولا لقب عنده إلا ما عند (مسيو) ريمون خادم المطعم الذي يأكل فيه . تلك هي العظمة . وتلك هي الديمقراطية . بل إن (الهر) هتلر هو أيضاً لا يمتاز عن (الهر) شاخت سائق سيارته في اللقب . قد يسند إليه أحياناً لقب (المستشار) غير أن هذا حقيقة لا لقب . بل أقل من حقيقة . لأن هتلر لا يفتظر حتى يستشار في أمر من الأمور . وهو المتصرف وحده في مصير بلده المؤثر في أقدار الشعوب ولماذا نذهب بعيداً وقد كان الامبراطور العربي العظيم عمر بن الخطاب لا ينادى إلا بلفظ واحد : يا عمر . .

إنه في رأي داء تصاب به غالباً الأمم الصغيرة التافهة فهي كالطفل

يحب كل ما هو براق طنان أجوف ، ولأت هذا الداء محصوراً في طبقة كبار الموظفين وحدهم ، بل إنه مع الأسف قد تعداه إلى جسد الأمة كله . فإذا كل من لبس (بذلة) يتوق أن يناديه الجميع بلقب (بك) ويكتب له الجميع (صاحب العزة) وأصبح لقب (أفندى) سبباً فاحشاً . ومن أراد أن يشتم أحداً في الطريق العام أو على صفحات الجرائد أو على مطروف خطاب . فما عليه إلا أن يقول له يا (أفندى) من المسئول عن هذا المرض الخطير ؟ لا أشك في أنهم هم الموظفون السكار أو قادة الأمر في البلاد من أصحاب « الرفعة » و « الدولة » و « المعالي » الخ فهم بتكالبهم على المظاهر الفارغة قد علموا الشعب أن يحترم الألقاب أكثر من احترامه لمجرد الأعمال .

فلعل الروح الجديد الذي يسرى اليوم في مصر الناهضة المستقلة يدفعها في طريق العمل والبطولة الحقيقية ، ويجفزها أيضاً على التفكير في تغيير نظرتها إلى الألقاب وتعديل كادر المقامات بما يتفق مع الروح السائد الآن في العالم ومع طابع العصر الحاضر في كل دول الأرض ، الديمقراطية منها وغير الديمقراطية !!

مصر والشعار الدولي

قرأت تعقيبكم على إثارتى لحركة خلع الطربوش فاسمحوا لى أن أبدي بعض حججى وأسبابى . وأبدأ فأقول أن لا محل للقلق والخوف من إضعاف الروح القومى إذا خلع الطربوش . فان الروح القومى هو فى القلب الحار لا فى ذلك (القرطاس) الأحمر . وقد يكون هنالك محل للخوف لو أننا كننا أول أمة فى الأرض قادمة على هذا التغيير . أما وقد فعلت ذلك قبلنا أمم شرقية هى الآن خير منا فى قوة روحها القومى فليس لنا إذن أن نتردد أو نخاف . فما من أحد يستطيع أن يقول أن اليابان ذات التقاليد الشرقية العريقة قد فقدت روحها القومى يوم لبست ولبس مليكها وهو ذو صفة دينية مقدسة اللباس الدولى الكامل وما من أحد يستطيع أن يقول إن النبى العربى كان له زى خاص . فهو قد لبس القلنسوة ولبس اللأمة ، ولم يكن هنالك فارق فى اللباس بين مسلم ومسيحى ويهودى . واليوم وقد أتجه العالم كله فى حضارته القائمة هذه الوجهة الجميلة ومن هذه السنة الحميدة التى ترمى إلى وحدة الزى فى الدنيا قاطبة ، هذه السنة التى عرفها الإسلام منذ نشأته فلم يحفل بزى أو بلباس حتى لا يجمل بين الناس فوارق غير ما لبسته أرواحهم ونفوسهم . اليوم وقد شعرنا بحاجتنا إلى الوحدة والمساواة داخل حدود بلدنا ، بازالة الفوارق التى تشطر السكان إلى طائفتين

غير متعادلتين . اليوم ونحن مقبلون على حياة خارجية قوامها الاندماج في عصبة الدول المتحضرة أى فائدة لنا في أن نضع بيننا وبين أمم الأرض ذلك الفارق الظاهر الصارخ الذى ينادى في كل حين بتخلفنا وحدنا دون غيرنا من الأمم الشرقية المسالمة وغير المسالمة التى أعلنت للعالم نهضتها وقامت تجلس جنباً إلى جنب مع أرقى الدول حضارة .

أما القول بأن تغيير لباس الرأس قد يجبر إلى تغيير اللغة أيضاً . فالجواب عليه أن ننظر كذلك إلى غيرنا من الدول التى تماثلنا في الحال ولنبحث هل غيرت اليابان والصين وإيران والعراق لغتها بل متى كان الاتحاد في الزى يوجب الاتحاد في التفكير ؟ إن الملمحوظ في حضارة اليوم أنها وحدت الزى في شعوب الأرض مع عدم المساس بشخصية كل شعب وثقافته .

وها هي ذى أمريكا تماثل انجلترا في الزى وتسلكم الإنجليزية مثلها ، ومع ذلك فإن الأدب والثقافة وطريقة التفكير عند الأمريكان هي غيرها عند الإنجليز .

لا ينبغي إذن أن نتمسك بكلمة « الشعار الوطنى » لشعبنا أو لحكومتنا المصرية . فإن مستقبلنا قد تغير . وبعد أن كنا شعباً منعزلاً قد أصبحنا شعباً منضماً إلى حياة الشعوب الأخرى لنا ما لهم وعليها ما عليهم ، فالأحرى أن نتمسك منذ اليوم بكلمة « الشعار الدولى » الرسمى للأمم العالم كما تفعل كل أمة تركت عزلتها وظلمتها

وخرجت إلى الحياة والمجتمع والنور .

وبعد فاني لشديد الايمان بالتطور الطبيعي لما أراه من تطور الشرق السريع نحو حياة جديدة وتفكير جديد قوامه الخروج عن العزلة والجمود إلى التجدد والتعاون مع العالم . وإني لألاحظ تقدم مصر في هذا السبيل قدما يشبه الركض على الرغم من المعارضة الكلامية الظاهرة . فالمرأة المصرية قد غيرت زيها في سكون وشجاعة . قوافها الرجال دون جدال . هذا يدلني على أن مصر تتحرك بالفعل وتسير ، وإن كانت لا تزال تسير مفتونة بالكلام والمناقشة أثناء السير . نعم كل هذا يثبت عقيدتي أنه لن يأتي عام ١٩٥٠ حتى تكون مصر متحدة مع العالم المتحضر في زيه الكامل المعروف . تلبية لنداء التطور الطبيعي للأشياء .

المعنى الانساني لوحدة الزى

مرة أخرى أناقش الحجة الوحيدة القائمة في جانب « الطربوش » وهي كلمة « الشعار الوطنى » وأغلب المصريين مفتون . بهذه الكلمة . وأغلب المصريين مازال يعتقد أن من المفاخر أن يتميز بلباس خاص ، شعب صغير ، عن بقية شعوب الأرض القوية المتحضرة . وقليل من المصريين يرى من المساخر أن يتمسك رجل أو رجلان بلباس أحمر فاقع صارخ بين مئات وألوف من الرجال المحترمين المنحدين في زى معروف . لقد لحظ بحق أحد المفكرين أثناء سياحة طويلة في آسيا وإفريقيا : أن الشعوب المنحطة هي أكثر الشعوب تمسكا بتقاليد الزى وأكثرها حبا في التمييز عن غيرها من الأمم بأردية صارخة الألوان . وأزيد أنا على هذا المفكر بقولى إن فكرة التمييز بشعار خاص ليست فقط فكرة « بربرية » في عصرنا الحاضر ، ولكنها تدل كذلك على ضعف الإدراك في أمة من الأمم . فإن من علامات الإدراك الضعيف عدم اتساع أفقه للأفكار الانسانية ولا ريب عندى الآن أن خوفا وترددنا في مسألة كمسألة الطربوش وتمسك السكثريين بكلمة « القومية » سببه الوحيد أننا لم نزل في حالة (عزلة ذهنية) لا أكثر ولا أقل . فنحن في الواقع لم نتصل حتى الآن بالعالم المتحضر اتصالا يشعره بوجودنا ويشعرنا بأننا جزء منه . فنحن في حقيقة الأمر شعب صغير لا وجود له حتى الآن على خريطة الفكر

الانسانى المتحضر، إنما نحن زراع وخدام وعبيد يعيشون على هامش الحضارة يخدمون المصالح المالية الأجنبية، التى قبضت على وادى النيل منذ عشرات من الأعوام . هذا كل دورنا الذى نلعبه حتى الساعة فنحن لم نقدم للعالم مايدله على مساهمتنا فى التقدم الانسانى . لأن الفكرة الانسانية نفسها بعيدة عن ذهنتنا . إنا لانفكر إلا فى أنفسنا وفى حياتنا الصغيرة وما يحيط بها من عوائد بالية ومعتقدات قديمة وتقاليد عتيقة . إن العالم المتحضر لا يهتم أن يعرف عنا شيئاً . لأننا ليس عندنا ما يستحق أن يعرفه العالم المتحضر، ولأننا لانفكر مطلقاً فى هذا العالم المتحضر . إنما نحن نعيش كمنفصلة من الدواجن وكفى . وهو يسخرنا لحسابه تسخيراً مادياً وكفى إني لا أقول إن خلعنا الطربوش سياتى بالأعاجيب وسيغير هذا الموقف . كلا مطلقاً إنما أقول وأصر على القول إن مارأيته من اتجاه الناس نحو استنكار كل تغيير للبالى العتيق هذا الاستنكار العنيف وتكالب الناس حتى شباب الجيل الجديد مع الأسف الشديد على الاحتفاظ بروح (القبيلة) الجامد . كل هذا أدهشنى وأحزنتى ودلنى على أن عقليتنا فى ذاتها لم تزل تميل إلى « العزلة الذهنية » وأن جرائم « البربرية » مازالت متأصلة فى نفوسنا، وأن أمامنا وقتاً طويلاً قبل أن نهضم الأفكار الانسانية فى ذاتها ونصبح أهلاً للانضمام إلى هيئة الأمم المتحضرة التى لاتتميز باختلاف الزى واللباس والتى اتجهت كلها إلى وحدة الزى إيدانا بوحدة الانسانية .

البعث

« — حوريس — انهض ، انهض يا أوزيريس !

أنا ولدك حوريس . . .

جئت أعيد إليك الحياة ،

جئت أجمع أعظامك ،

وأربط عضلاتك ،

وأصل أعضائك . . .

أنا حوريس الذى يكون أباه .

حوريس يعطيك عيونا لترى .

وآذاناً لتسمع ، وأقداماً لتسير ،

وسواعد لتعمل . . .

هاهى ذى أعضائك صحيحة ،

وجسدك ينمو ،

ودماؤك تدب فى عروقك .

إن لك دائماً قلبك الحقيقى ،

قلبك الماضى !

الميت — إني حى ، إني حى ! . .

« كتاب الموتى »

وحوريس ليس إلا الشباب ، يعيد الحياة إلى ماضيه الميت .
 نعم هو الشباب الذي يكون أباه الوطن . وقد أعطاه بالفعل عيوناً
 يرى بها غابره العظيم في حريته وحاضره الدليل في قيود الغرباء ، وأذاً
 يسمع بها ضحكات السخرية من أفواه الجبناء الذين جاءوا يستغلون
 رقاذه ويستلبون خيراته . كما أعطاه أقداما يسير بها كي يثبت
 لهم أنه حي ، وسواعد يعمل بها على تشييد الصرح المهذوم . إن
 أعضاء الوطن صحيحة لم ينقص منها عضو . وها هو ذا جسده
 يتحرك وينمو ، والدم يجري في شراينه . والشباب على رأسه يصيح :
 « إن لك دائماً قلبك الحقيقي . قلبك الماضي ! » ويخيل إلى أني
 أسمع الوطن من كل جانب يلبي النداء ويبسب الشباب الأبناء : « إني
 حي ، إني حي ! » إني دائماً أؤمن بأن مصر لا يمكن أن تموت .
 لأن مصر منذ الأزل ظلت تعمل وتكد آلاف السنين لهدف
 واحد : مكافحة الموت ، ولقد فازت مصر ببعيتها . وكلما ظن الموت أنه
 انتصر ، قام حوريس من أبنائها يصيح : « انهض ، انهض أيها الوطن ! »
 إن لك قلبك ، قلبك الحقيقي دائماً . قلبك الماضي ، وإذا الموت
 يتراجع أمام صوت مدوّ من أعماق الوطن :
 « إني حي . إني حي ! »

النهض
 والنهوض

دولة العميان ! ..

هل سمع أحد إحتي الآن عن اعمى لا تدرك
يده اليمنى ما تصنعه يده اليسرى ؟ ..

انها ليست على مثال تلك الدولة من العميان التي صورها الكاتب
الانجليزى « ويلز » فى احدى قصصه .. فدولته تسير على الاقل
تبعاً لمنطق خاص .. وتجرى الحياة فيها على نهج متواضع عليه ..
أهلها لا يبصرون بعيونهم حقيقة .. ولكنهم استعاضوا عن العين
بحواس أخرى ، أظهرت لهم حقائق الوجود فى أشكال جديدة ،
وأنشأت لهم مجتمعاً قائماً على قواعد خاصة به .. قد ينكرها الغريب
عنهم ، ويعجب لها غير الخاضع لظروفهم .. ولكنها فى محيطهم هم
طبيعة صادقة معقولة .. تعهدتها يد الخبرة والعناية ، وأدركتها فى فلك
الأيام متسقة منتظمة مصقولة .. لا تلمح فى بنائها ثغرة تنم عن عبث
أو فوضى أو خرق أو هوس .

أما دولتنا التي نتحدث عنها هنا فمختلفة كل الاختلاف ..
فالعمى فيها من نوع غير معروف .. وهل سمع أحد حتى الآن عن
أعمى لا تدرك يده اليمنى ما تصنعه يده اليسرى ؟ .. هذه العجيبة
قد وقعت .. ولم تقع مرة .. ولكنها تقع كثيراً .. وتكاد تكون
من الظواهر العادية التي تحدث فى كل يوم .. ولعل أكثرنا أعاد

يعجب لحدوثها . . وهل دهش كثير من القراء وهم يطالعون خبر تلك المصلحة التي تملك قطعة من الارض مناصفة مع مصلحة أخرى فأجرت الاولى نصيبها لاحدى الشركات بسعر ٣١٥ جنيها للفدان بينما أجرت المصلحة الاخرى نصيبها لذات الشركة بسعر ٢٠ جنيها للفدان . . وظل الامر على ذلك عشر سنوات ، بلغت فيها خسارة الدولة ١٤ ألف جنيه . . فلما سئلت المصلحة الاخيرة فى الامر قالت إنها لم تكن تعرف أن المصلحة الاولى كانت تؤجر نصيبها بذلك السعر المرتفع ! . . وهاتان المصلحتان الشريكتان تابعتان لحكومة واحدة فى دولة واحدة ؟ . . واسكنها دولة العميان التي لا تعرف فيها اليد اليعنى ما تصنعه اليد اليسرى ! . .

* * *

ومثل هذا كثير فى هذه الدولة . . فبينما تندفع أفواج الطلاب فى التعليم الثانوى تطلب أمكنة فى بعض المدارس المزدحمة . . يهمس نظار بعض المدارس الاخرى قائلين إن لديهم متسعا للطلبة وفرجا وأولئك لا يعرفون ، وهؤلاء لا يتكلمون . . والوزارة لا ترى هذا ولا ذاك .

وفى كل عام تطرق أبواب السكليات جيوش من الطلبة ، فتوصد دونها الابواب ، كأنها جيوش كلاب تهجم على طعام لاحق لها فيه . . وما من أحد يسأل نفسه ما مصير هؤلاء المطرودين . . وإذا

وإذا نجحنا في نفوذ أيدينا منهم هذا العام ، فإذا نحن فاعلون
بأضماهم فيما يستقبل من أعوام ؟.. في دولة العميان لا حساب للغد
ولا إدراك للزمن !..

وفي كل جهة من جهات الحكومة موظفون لهم عين المؤهلات
ويقومون بعين العمل .. ولكنهم في هذه المصلحة يقبضون أجراً
ملائماً .. وفي مصلحة أخرى ينالون أجراً لا يمسك الرmq .. فإذا
أبدوا العجب لهذه الفوضى .. سمعوا ألفاظاً غريبة .. مثل « الكادري »
و « التنسيق » .. وغير ذلك من هذيان العميان !..

وفي كل ناحية من نواحي الأيراد أناس يدفعون للدولة ضرائب
وأناس لا يدفعون .. وربما كان الذي لا يدفع هو الأقدر على الأداء ..
فإذا بحثنا في النسب والمقاييس التي يؤدي بمقتضاها الناس ضرائبهم
وجدنا عجباً من التخبیط وضياع العدالة !.. فأیدی الدولة هنا لا تدرى
في أى جيب توضع .. وإذا دخلت بالمصادفة في جيب من الجيوب
لا تعرف كم تدع وكم تأخذ !..

ما العلاج لهذه العاهة المتمكنة في هذه الدولة ؟ تلك العاهة التي
أدت إلى ثورة الطوائف وتخبیط النظم !؟

لو كان الأمر بيدي لأشرت بصنع « عين » مهمتها أن تبصر
لهذه الدولة ، وأن تربط أعضائها بعضها ببعض .. وأن ترى لها الطريق
اليوم وفي المستقبل . ولنطاق على هذه العين إسما من تلك الأسماء

المألوفة لدينا . . فليكن اسمها مثلاً : « وزير الخطط » أو « وزير المشروعات » أو وزير التناسق الحكومي ... لا تتبعه وزارة من هذه الوزارات المعروفة .. ولا يكون هو على رأس وزارة من النوع المعروف . ولكنه يوضع في مكان مستقل . . مع جلة من الخبراء والاختصاصيين يرسمون « خريطة دقيقة لتمييز فيها ولا محاباة . . يوضع فيها كل موظف وكل فرد وكل عامل وكل ممول وكل منتج في مكانه الذي يكفل له الانصاف في الحقوق والواجبات . ويدرسون حاجة البلاد في كل مرافقتها في حاضرها ومستقبلها . ويضعون الخطط الثابتة ويهيئون المشروعات للسنوات الخمس أو العشر . . في التعليم والرى والزراعة والتجارة والصناعة الخ . .

إن في تولى هيئة واحدة بحث هذه المشروعات جملة في دار واحدة أكبر ضماناً للتناسق والنظام . لأن كل هذه الفروع المختلفة في الظاهر مرتبط بعضها ببعض في الباطن .. لقد قيل ان فتح أبواب التعليم على مصاريعها في بعض الكليات لا يؤدي في مصر إلى خير لماذا ؟ لأن النشاط التجاري أو الصناعي الذي يستوعب في أوروبا أكثر الخريجين . متخلف في بلادنا عن النشاط العلمي النظري .

لا بد إذن من إيجاد نوع من التنسيق بين نشاطنا التعليمي ونشاطنا الاقتصادي . . وقل مثل ذلك في كثير من نواحي خططنا ومشروعاتنا التي تحتاج إلى دراستها جملة ، وتحت قيادة واحدة حتى لا

يؤدى البحث والتنفيذ إلى ذلك التخطيط الذى نرى صدامه كل يوم
بين وزارة ووزارة ! ..

كارتتنا هى أن كل وزارة لا ترى فى الوجود إلا نفسها . . . فهى
تضع مشروعاتها مستقلة وقد عصبت رأسها بقناع . فلا ترى عينها
العمياء شيئاً . . . ولا تلمس يدها إلا ورق ملفاتها هى . . .
وسبظل الحال هكذا طويلا فى دولة العميان . إلى أن نفطن
آخر الأمر إلى ضرورة إيجاد تلك « العين » التى تشرف من عل ...
على كل أمورنا جملة ببصر حاد نافذ خبير ! ..

في المرأة

المرأة والمجتمع

إنه ليدهشني حقاً أن بعض الشباب المنقف نادى يوماً
بفصل الجنسين في الجامعة المصرية ، في وقت أتمر فيه نظام
الدراسة المتحدة وأخرج لنا فتيات حائزات على الليسانس
والماجستير والدكتوراه ، هن فخر مصر وهن أنصع دليل
على رقي مصر العقلي في الوقت الحاضر . إن القول بأن المرأة
للبيت لا لمزاحمة الرجل لا يحول مطلقاً دون تثقيف المرأة
تثقيفاً تاماً لتكون زينة البيت وأستاذ الطفل ومعلم الجيل .
إن المرأة ليست قطعة من أثاث البيت توضع فيه بجهلها وعقلها
المغلق . وهي ليست خادماً تطعم الرجل وتغسل له ملابسه ،
ولكنها شريك محترم ينبغي أن يجد فيه الرجل متعة عقلية تحبب
إليه البيت .

أما شبع رجالنا طول الأجيال الماضية جلوساً في القهوات
والحانات يأنس بعضهم ببعض ، هاربين من وحشة المنزل
الذي لا يحوى غير نساء كالتخادعات ؟ نعم . إن المرأة

للبيت . ولكنها لكي تكون بحق ملكة البيت وقررة عينه يجب أن تتقن أكل ثقافة . إن من النساء في صدر الاسلام من فتن الرجال في فنون الشعر والأدب والعلم والجدل . وقد كان لبعضهن مجالس مشهورة يحضرها رجال الدولة ونوابغ الشعراء والأدباء والمفكرين . وكان ذلك في عصر لم تزاحم فيه المرأة الرجل في المناصب والأعمال . كذلك فلنقل عن ثقافة المرأة الأوروبية يوم كانت صالوناتها تضم أعظم العباقرة دون أن تخرج المرأة وقتئذ من أجل ذلك عن وظيفتها فتزاحم الرجل في أسباب معاشه . لا ينبغي إذن أن نخلط بين أمر تثقيف المرأة وبين أمر توظيفها . إن المرأة زهرة البيت وروحه ، بل زهرة المجتمع وروحه ، كلنا في ذلك متفقون ، فلنجعلها إذن زهرة . وهل نعرف زهرة أينعت دون أن تتعرض قليلاً للشمس والهواء ؟ ! فلنحاذر كل الحذر من حبس المرأة . فإن في ذلك حبساً لعقلها وموتاً لشخصيتها . ولنذكر أننا إلى اليوم ندفع غالباً نحن سجن المرأة المصرية في الماضي . فهي كلما دعتها الظروف إلى مواجهة الحياة والمجتمع اهتزت قدمها ضعفاً واحمر وجهها حياء وتلعثمت وتعثرت في هزالها النفسي والفكري وظهرت بمظهر يدعو إلى الرثاء والاشفاق ، وبدأت للأعين أقرب إلى الخدمات المحجوبات منها إلى سيادة مهذبة قوية بشخصيتها وتجاربيها واثقة من نفسها ومن احترام الناس لها . كل هذا حدث لأن المرأة في مصر ذبل عقلها من طول

السجن ولم تعتد مواجهة المجتمع منذ الصغر . إن إقصاء المرأة عن مجتمعنا كما يقصى الحيوان الخفير جريمة فظيعة ، هي القتل المعنوي بعينه لا أكثر ولا أقل ، وهي الامتهان لكرامتها ولأدميتها امتهاً يوجب عليها أن تنور من أجله وأن تقيم الدنيا وتقعدها ولا تسكت عنه كما سكنت فيما مضى من أجيال . فإن المسألة مسألة حياتها أو موتها . وإن الذين يريدون قتلها باسم الدين ، والدين برىء ، لا يدركون أنهم بذلك إنما يقتلون أنفسهم بأيديهم .

إن عقل المرأة إذا ذبل ومات فقد ذبل عقل الامة كلها ومات ..

المرأة والفن

إني إذ أتكلّم عن الفن لا يسعني إلا أن أعترف مرغمًا أن المرأة هي روح الفن ، ولو لم توجد المرأة على هذه الأرض فربما وجد العلم ، لكن المحقق أنه ما كان يوجد الفن ، ذلك أن الإلهام الفني هو نفسه قد خلق على صورة امرأة ، وأن لكل لون من ألوان الفن عروسا هي التي تنثر أزهاره على الناس . مامن فنان على هذه الأرض أبدع شيئا إلا في ظل امرأة ، وهذا القول مني غريب ، ولا بدادرتوضيح قصدي حتى لا يقال إني رجعت إلى فضيلة الحق ، أعني الحق الذي تراه المرأة ، كلا إني لم أرجع إلى هذه الفضيلة بعد . وكل ما في المسألة أني دائما أفرق بين المرأة كشيء يوحى بالجمال ، وبين المرأة ك مخلوق يريد أن يستأثر بكل شيء في حياتنا . إن عداوتي لهذا المخلوق لن تنقطع مادمت أخشى منه . إن عداوتي ليست إلا دفاعا عن نفسي . فلو أن المرأة تمثال من الفضة فوق مكتبي ، أو باقة من الزهر في حجرتي ، أو أسطوانة موسيقية أنطقها وأسكتها بإرادتي ، لما كان لها عندي غير تقديس وإكبار لا يحدهما حد . ولكنها للأسف شيء يتسكّم ويتحرك وهي أحيانا كالطفل يلقي من النافذة كل شيء نمين ويجلس على حاقها يضحك ضحكة الانتصار . على أن الإنصاف يقتضي أن أقول إن المرأة إذ تحطم من جانب فهي تبني من جانب . إنها كالطبيعة

فى يديها العبقريتان : عبقرية الفناء وعبقرية البناء ، وإنه لمن المستحيل أن نرى فى التاريخ حضارة قامت بدونها ولا انحطت بدونها ، وإن عرشها فى مملكة الفن أظهر العروش . إننى أستطيع أن أقول على سبيل المثال إن أجمل الفن الرومانتيكى الفرنسى إنما نبع تحت أقدام « مدام ديكاميه » وإن صالونات السيدات فى أوروبا ، ومجالس الشعر والفناء فى الشرق عند العرب هى التى أخرجت أجمل ما فى الغرب والشرق من شعر وآداب وفنون . ولا أستطيع أن أضرب هنا الأمثلة ، ولكن من يفتح أى كتاب من كتب العرب القديمة يرى وصف تلك المجالس التى كانت تنصدها نساء كالشموس ، وتضم فحول الشعراء والمغنين ويقرأ تلك الأخبار التى لا تنتهى عن ذكر الجوارى المثقفات والنساء الشريفات اللائى كن ينظمن فى السر والعلن ، تلك المجالس التى فيها نظم أجمل الشعر ، وتفتحت أزاهير أنيبغ القرائح ، ولعلية أخت هارون الرشيد ذوق فى فنون الشعر والفناء أثر فيمن حولها من كبار الفنانين والشعراء . ولمدام دى بومبا دور أبرز يد فى حركة الفكر والفن فى عصرها . ففى الغرب هى المرأة ، وفى الشرق هى المرأة ، حينما وجدت المرأة صاحبة الذوق وجد فى الحال الفن ونهض الفكر ، وقامت الحضارة . إذا قيل إن مصر الحديثة لم تربعد فناها هذا ، ومن ثم لم تبد أمام العالم بعد فى ثوب الأمة المتحضرة ، فإن السبب الوحيد أن المرأة المصرية ذات الذوق والروح مازالت فى مصر نادرة الوجود ، إن اليوم

الذى تعنى فيه المصرية باقتناء « لوحة زيتية » صغيرة أو « اسكيس » بسيط ينم عن ذوق تزين به جدار منزلها هو اليوم الذى يزهر فيه عندنا التصوير . واليوم الذى تهتم فيه المصرية بشراء نسخة من كل كتاب جديد للمؤلف الذى تفضله وتجلد هذه النسخة وتعرضها عرضاً جميلاً ، وتحدث عما فيها من كلام وأفكار فى مجالسها ، هو اليوم الذى يرقى فيه عندنا الفكر والأدب ، وإن اليوم الذى توجد فيه المرأة العظيمة التى تكرر بعض همها لا يقاظ هم الفنانين وتنشيط الحركة الفكرية هو اليوم الذى تقترب فيه من المدنية الحقيقية ، نحن فى حاجة إلى « البيت المصرى » الذى تنمو فيه كل ملكات الطفل الجميلة . إن الطفل الاوروبى منذ اليوم الاول الذى يستقبل النور فيه لا ينم إلا على غناء جميل ، وما يمضى قليل حتى تقوده أمه فى عربة صغيرة إلى الحدائق ، فلا يقع نظره الهادى . الالهى ، فى غير وعى ولا إدراك ، إلا على الطبيعة الجميلة ، بسماؤها وجنتاتها ، وجداولها . وما يكاد يعى ويدرك بعض الادراك حتى توضع فى يديه كتب لا كتابة فيها ولا كلام ، بل صور جميلة ملونة للحيوانات والطيور والخلوقات ، والطبيعة فى مظاهرها الوضاءة الساحرة ، فيحس جمال الرسم قبل أن يفقه معنى كلمة « الرسم » ويضطرب لتناسق النغم قبل أن يعرف ماهو ألغناء ، ويشعر يتناسب الاوضاع وتجاوب الالوان فيما يحيط به من مظاهر الخليقة ، ولما يعلم الكلمات والالفاظ التى يعبر بها عن كل هذه المشاعر ،

فهو قد أدرك وجود الجمال عن طريق الاحساس ، فلا ينقصه بعدئذ إلا إدراكه عن طريق العقل والمنطق وهو عمل المدرسة والكتب . على أن مجرد الشعور بوجود الجمال في المخلوقات والأشياء طفرة كبرى في النسكين الروحي للطفل . فما الجمال إلا المظهر الخارجى والثوب البادى للنواميس العليا ، ففي إدراك وجوده إدراك خفى مهم لعظمة تلك القوانين التى تنظم الوجود ، وهذا الإدراك هو كل شرف الانسان وفضله وهو وحده الذى يميز الانسان عن سائر الحيوان ، فلو شعرت الحيوانات يوماً بالجمال لما لبثت حيوانات دقيقة واحدة . إن أظهر عجب فى المصرية الآن هو افتقارها إلى الذوق ، أى الاحساس بالجمال فى الأشياء . كم من المصريات تعتبر الازهار فى بينها ضرورة كضرورة الطعام والشراب ؟ . . إذا وصلت المصرية إلى هذه الدرجة من الحس المرهف ، وبلغت فى دقة شاعرها حدا لا تستطيع معه أن تستغنى فى حياتها اليومية عن الجمال فى الالوان والاصوات والافكار ، فلقد حق لنا أن نصيح فرحين مهللين بحق : إن مصر لا تنقل رقياً عن أرقى الدول حضارة ، وهذه المرأة المصرية ذات الذوق الرفيع والروح المهنذب ، الدقيقة الاحساس بكل ما هو جميل ، هى نفسها التى تخلق الفنان وتوحى إليه ، لأنها لا تستطيع أن تكون بمعزل عن أولئك الذين يصنعون الجمال . إنها ستهتم بأمره وتواليه بالتشجيع ولا تتركه يفترى حتى تستثير خياله ، فالمرأة يجب أن تعلم أن « الفنان » ليس إلا قيثارة ، وأن أناملها الرقيقة وحدها هى التى تستطيع أن تخرج منه أجمل الانغام .

المرأة والفنان

الفنان الحقيقي هو ذلك الرجل العجيب الذى تزوج « الفن » ،
 فهل أمثل هذا الإنسان يستطيع أن يتزوج أيضاً « المرأة » ؟ هذا امر اختلفت
 فيه الآراء . . ورأى الشخصى أن هذا مستطاع ، لو أدركت المرأة أن
 حياتها مع هذا الإنسان لا ينبغي أن تشابه أى حياة أخرى ، وأن
 حياتها ستبذل بلائمن لرجل بذل حياته هو أيضاً بلائمن ! .
 نعم ، يجب أن تفهم امرأة الفنان أن كل حياتها ينبغي أن
 تقدم لزوجها الفنان ، وأن كل رسالتها فى الحياة أن تسكفل لزوجها
 الحياة الهنيئة الجميلة التى فى كنفها يفتح ويخلق . زوجة الفنان هى
 تلك التى تعنى بزوجها ولا تطالب زوجها أن يعنى بها .
 هى التى تزيل متاعب زوجها ، ولا تنتظر من زوجها أن يزيل متاعبها .
 هى التى تتلقى من زوجها همومه ولا تخبره مطلقاً بهمومها . . . هى ذلك
 الخلق الذى يعيش صامتاً صابراً باسمها بجوار الفنان طول العمر ، دون
 أن يشعر لحظة واحدة بوقر هذا الجوار ، هى التى تقف إلى جانبه دائماً
 دون أن يظن إلى أنها موجودة . إن الزوجة التى تستطيع أن تعيش مع
 « الفنان » هى بالاختصار تلك التى لها رسالة وعقيدة ، هى التى
 تستحق بصبرها وتضحياتها أن يقرن التاريخ اسمها باسمه . هى التى
 تضع فى قلبها هذه الكلمة : « إنما يعيش الفنان من أجل الفن
 وتعيش هى من أجل الفنان » .

المرأة وأشواكها

كثيراً ما يخلط الناس في أمر نظرتي وعلاقتي بالمرأة ، وإنهم
ليتهمونني أحياناً بالتناقض ، إذ يرون أنني أحمل عليها مرة ، وأشيد
بذكراها أخرى . والحقيقة أنني في كلا الحالين أعتقد ما أقول .

فالمرأة من غير شك هي الزهرة المشرقة في بستان وجودنا الأدبي ،
زهرة لها نضارتها وعبيرها ، لكن لها أيضاً أشواكها .

جمال المرأة وفننتها : تلك هي في نظري أشواكها الحقيقية التي
تضع فيها كل محبوم سلطانها وسطوتها . فالمرأة إنما تشهر علينا نحن
الرجال هذا السلاح ، وتقف به في وجه أعمالنا ، آمرة فينا وناهية ،
صائحة بنا أحياناً أن نقف في طريقنا كما تقف القافلة تحت تهديد
قطاع الطريق ، لتأخذ منا كل ما عندنا من وقت ، وقلب ، ومال ،
وجاه ، وشهرة . إنها لتجردنا من كل شيء ، وتتركنا عراة تحت
سلطان سلاحها المسلط الخيف !

لعلها تنهني بالمبالغة ، ولكن هل تستطيع امرأة أن تقول لي
إن هنالك امرأة في الوجود تعيش لغرض آخر غير سلب الرجل ! .
إنك إذ فتحت رأس امرأة لما وجدت فيه غير هذه الغاية . اسطو
على رجل !

إن الرجل قد يعيش لعمله ، أولفكرته ، ولكن فكرة المرأة

وعملها هو البحث عن الرجل الذى تسلبه لحظاته وكل حياته . فإذا نظرت المرأة إلى رجل مشهور فأنما تنظر اليه بفكرة واحدة : أن هذه الشهرة لها . وإذا كان غنياً فللال لها ، وإذا كان لبقاً فظريفاً فكل ذلك لسرورها وتخدمتها !

لست أتكلم بالطبع هنا عن المرأة المجردة من السلاح « ولكنى أتكلم عن المرأة ذات الآشواك ، المرأة المدججة « بسلاح » الفتنة والجمال . وهما هو ذا تاريخ البشرية أمامنا . أين هى المرأة الجميلة التى لم تستخدم جمالها فى إخضاع الرجل ؟؟ كم امرأة فى التاريخ جعلت جمالها فى خدمة « غاية اسمى » من إخضاع الرجل ؟ إن المرأة ليست لها الشجاعة أن تنكس سلاح جمالها فى وجه الرجل . إن المرأة مخلوق « غير سلمى » ، متى وجد فى يدها سلاح تحركت فيها غريزة السطو والحرب . إن المرأة الجميلة هى عدو الرجل المفكر .

المرأة والعظمة

سألتني إحدى المجلات عن النساء العظيمات في مصر اليوم .
فذكرت أربعاً تصلح كل واحدة منهن أن تمثل ناحية من نواحي
العظمة في المرأة : الأولى والثانية معروفتان . والثالثة والرابعة مجهولتان
الأولى والثانية رمز لعظمة المرأة الشرقية في المحيط العالم . والثالثة
والرابعة رمز تلك العظمة في المحيط الخاص .

الأولى تلك التي شاركت زوجها العظيم في قيادة حركة تحرير
البلاد . وتعرضت معه لسكل الأخطار وقالت له في شجاعة يوم علمت
أن الشجاعة قد تكلفه الحياة : « امض في طريق الجهاد وأنا معك »
وحملت عنه وهو في منغاه لواء الثورة ، وقاسمته إلى وفاته بيض الأيام وسودها .
ثم بقيت وحدها بعده رمز الأمة المتحدة ، لا تميل إلى يمين ولا إلى شمال
وتعصف حول أقدامها عواصف الحزبية وهي ثابتة شاحخة كأنها
« الوحدة القومية » صبت في تمثال . إنها بقيت جديرة بزوجها في حياته
ومماته . بل إنها بقيت تذكرنا ببعض معاني العظمة في وقت نسيتم
فيه كلمة العظمة في ميادين السياسة القومية .

الثانية — تلك التي قادت حركة تحرير المرأة في مصر والشرق
وجاهدت جهاداً متصلاً في سبيل الرقي بمستوى المرأة المصرية الاجتماعية
وبذلت جهدها ومالها ووقتها في إقامة المنشآت العامة التي تنفع الفتاة

والمرأة . ولقد خالفت هذه الزعيمة في بعض الآراء . لكن مهما يكن من أمر خلافتنا في الوسائل والتفاصيل فإني متفق معها في الغاية النبيلة والغرض الأسمى . وهو رقي المرأة المصرية والشرقية . من أجل ذلك لا يسعني إلا أن أعترف بعظمة هذه السيدة التي تكسر حياتها لمثل هذا الهدف العظيم وأرجو مخلصاً أن تنجح في رسالتها وأن ينصفها التاريخ ، الذي هو لاشك مثبتها على كل حال في سجل العظيمات .

الثالثة — تلك التي لا يعترف بعظمتها سوى . لأنها مجبولة كالجندي المجهول . وهي مثله تمثل فئة تجاهد في الظلام جهاد الأبطال . فقد أتاحت لي الظروف أن أعرفها وأراها عن قرب . رأيتها وهي تهذب أطفالها وتذشئهم على حب المثل العليا . لقد كانت تجمعهم كل ليلة عقب العشاء لتقص عليهم قصصاً لذيذاً مما تطلعه أثناء فراغها ، تختاره من بين ذلك النوع الممتلئ بالبطولة الخلقية والفضائل الانسانية ، ولم يكن أطفالها وحدهم هم الذين يلد لهم هذا القصص بل زوجها أيضاً الذي كان يكرر في العودة حاملاً الحلوى ليصغي إليها مع الأطفال . لقد كانت هذه السيدة إلهة ذلك البيت بالمعنى العظيم لتلك الكلمة . ولقد كانت المعينة لزوجها في كل شيء الناصحة له في كل أمر . إذا شد يوماً عن قصصها ضل . لقد تحملت معه قسوة الحياة منذ اليوم الأول وذاقت معه مر الكأس وكان نصيبها أكثر من نصيبه . أما حلوها فما كانت تسمح لنفسها إلا بالآقل . وكانت ذكية قوية الإرادة تتقن كل عمل

وتحب أن تحقق كل شيء يقع في محيط حياتها . لقد أدارت بينهماخير إدارة ، بل أدارت مزرعة زوجها خيراً منه يوم اضطرتها الظروف إلى هذا العمل . ولقد شاهدت أولادها يشبون على مبادئ الخلق القويم والرجولة السكاملة التي غرستها فيهم . ورأت زوجها يختم حياته السعيدة لافظاً اسمها مع النفس الأخير ، فعلت أنها أدت واجبها كزوجة صالحة وأم مثلى . من هي هذه السيدة ؟ ذلك لا يهمنا ولا يهمها . فحسبنا أن نعرف أنها امرأة عرفت واجبها وأدته على الوجه الأكمل . وهذا ليس بالشيء القليل على هذه الأرض . وهذا وحده يكفي أن نتحنى لها احتراماً كما نتحنى أمام تمثال الجندي المجهول . ذلك البطل المستتر رمز البطولة المستورة التي لا تقل شأنًا عن البطولة المشهورة .

الرابعة — تلك التي .. تريد زوجاً لا كأغلب الرجال . بل رجلاً ذا رسالة عامة شاقّة يكافح في سبيل أدائها معرضاً حياته للنجاح والفشل وللسلامة والخطر رجلاً يعيش بمنزل عليها يرجو أن ينير بها طريق الناس والإنسانية ، لماذا تريد أن تقرن حياتها بحياة هذا الرجل ؟ لأنها تريد أن تسكر نفسها لهدف عظيم . إنها إذن عظيمة النفس . إنى أتصور ما تستطيع أن تصنع لزوجها مثل هذه المرأة ؟ إنها ستسهر عليه كما تسهر العين اليقظة على المصباح المضيء ، تحرص على استمرار نأله وتمسح عنه الدخان وتملؤه بالزيت من حين إلى حين

المرأة والحرية

من بين الاساطير الهندية ، أسطورة معروفة في كل مكان . . خلاصتها أن الاله « تفاشترى » عندما خلق الدنيا . . تناول في يده العناصر كلها ، وصنع منها الشمس والقمر والنجوم والجبال والرياح والبحار والاشجار والحيوان . . وأخيرا الانسان . . في صورة الرجل الاول . . وجاء ذلك الرجل شاملا لكل العناصر مستنفدا لها جميعها . . فلما أراد الله . بعدئذ ان يخلق المرأة لم يريد ان أن يستعير لها صفات غيرها من الكائنات . . فأخذ لها من الشمس ضياءها ومن القمر استدارته ، ومن النجوم بريقها ، ومن الجبال عنادها ومن الرياح قلبها ، ومن البحار ميوعتها ، ومن الاغصان مرونتها ومن الندى دموعه ، ومن الورق خفته ، ومن الياقوت وداعته ، ومن النمر قسوته ، ومن الطاووس خيلاءه ، ومن النار حرارتها ، ومن الجليد برودته عجن الاله كل هذه الصفات وصنع من تلك العجينة ذلك المخلوق الذي يسمى « المرأة » وقدمه الى الرجل . . هدية تؤنس وتسرّه وتسعده ، فتقبلها الرجل شاكرا . . ولكن لم يمض قليل . . حتى رأى الاله ذلك الرجل يأتي اليه شاكيا :

— خذ هديتك ! انه سلطان طاغ . . انه مخلوق لا منطق له . انه يسير في اتجاهات مختلفة . . وطرق متعارضة . . ما يجبه اليوم

يكرهه غدا ، وما رفعه أمس خفضه اليوم من اين جئت به ؟ وكيف
صنعتة ؟ كل المتناقضات فيه . . كدانه ثوب مرقع . . فيه من كل لون
قطعة ! ومن كل مادة بضعة !
فقال الاله :

— وما الذى يزعجك من تناقضه وتقلبه . . مادمت أنت المالك لزمانه ؟
فقال الرجل :

— من قال انى المالك للزمان ! لقد قال الى حقما انه جاء لخدمتى ولمصاحتى
ولهنائى ولرفعتى . . ولكن . ما ان استقر فى حياتى حتى غدا هو كالسلطه
الطاغية فى الشعب الضعيف !
فقال الاله :

— هذا ليس من حقه .

فقال الرجل :

هذا هو الذى حدث . . إنه لم ينثر على حياتى رغدا . ولا نعيميا
ولا هناء ولا رخاء . . فهو الاثرة بعينها . والانانية قائمة على قدمين . .
تجردنى مما عندى لنمتلىء هى وتنفخ ، إن هذا المخلوق قد سلب منى
ما معنى ولم يعطى شيئا . .
فقال الاله :

— وكيف تركته يفعل ؟ !

فقال الرجل :

لست أدري .. لقد خدر إرادتي . واستغل لحظات ضعفي واغتر
 «بإخلاصي وحبى فجعل يتصرف فى أمرى ومالى تصرف المالك فى عبده .
 وليته أحسن التصرف .. لقد استبد برأيه فلم يعد يحفل بالأصغاء الى
 أو يأبه بالنماس المشورة عندى !

فقال الإله :

— وماذا تريد منى الآن ؟

فقال الرجل :

— جري .. إعطاني حريقى . وخذ هديتك .. الطاغية ! ..

فقال الإله :

— لست أنا الذى سلبتك حريتك .. حتى أردتها عليك !

أنت الذى قدمتها بمطلق اختيارك الى هذا المخلوق .. الذى تسميه
 طاغية ! . إنى لم أجد لك أضعف منه لا منحك إياه .. مخلوق ، كما اعترفت
 أنت ، لا عقل له ولا منطق ، لا يدري ما يفعل اليوم ولا ما يتجه اليه غدا
 أعطيتك لك .. لتحكمه لا ليحكمك .. ولتوجهه لا ليوجهك ..
 ولتأخذ منه هناءك ، لا ليأخذ منك دماءك ! .. ماداخلى أنا إذن
 إذا كان العكس هو الذى حدث ؟ ! . ثق انى ان أجد لك أضعف منه
 حاكما لك ...

قال الرجل :

— وماذا اصنع الآن ؟ ...

فقال الاله :

— كافح اكن رجلا . انى اذكر يوم خلقتك رجلا ، انى جعلت لك قوة وجلدا . . .

قال الرجل :

— الاتخلصنى من هذا المخلوق ؟ . .

قال الاله :

— اخلصك منه . . على شرط . أن اخلصك فى نفس الوقت من قوتك . . .

— قوتى ؟ ! .

— نعم . . قوتك التى آثرتك بها وميزتك . . انى ما أعطيتك القوة عبثا . . إنما أعطيتك القوة لتكافح بها فى سبيل إراداتك . . . وما دامت لك ارادة ، فلن يسلبك طاغية حريتك . . .

* * *

واختفى صوت الاله خلف السحب . . وترك الرجل وحيدا . . يفكر ويردد :

— إرادتى ! .

ثم ثاب إلى رشده أخيرا . . فانطلق الى بيته لايلى على شىء . . وقد دبر فى نفسه أمرا . . فما أن بلغ أعتاب الدار ، حتى رأى ذلك المخلوق الضعيف المتعجرف . . واقفا وقمة الزهو . . وقد عقد على رأسه

الفارغ من العقل ، تاجا من زهر .. وهو يتأهب للصياح بالمهجة الأمر ..
فاقترب منه الرجل ، وأمسك بشعره الطويل الفاحم ، وجزمه بسكين
خصلات .. قتل منها جبلا .. أوثق به يديه ..

ثم قال :

— الآن أيها السلطان الطاغى لن تأخذ مني حريقى !

المرأة والبيت

سألتني كذلك إحدى المجلات عن رأيي في الفتاة المصرية الحديثة وفهمها لرسالتها نحو « البيت » . فأبدت خوفاً شديداً من أن يؤدي تيار الحياة العصرية إلى جرف المرأة المصرية بعيداً عن واجبها الأسمى . فالفتاة اليوم أمام هيكلين هائلين يؤثران في عقليتها الناشئة ومجري تفكيرها الحديث : دور السينما ودور الجامعات ، وإني لأخشى أن أقول إن الفتاة في مصر اليوم إذا فقدت الاتزان واندفعت بكل روحها إلى أحد هذين الهيكلين فلا مناص لها من أن تكون إحدى اثنتين :

الأولى — تلك التي تخرجت بنجاح من دور السينما والملاهي وحققت تقليد ممثلات هليوود ورأت كلوديت كولبير تصفع زوجها في الرواية على خده الأسيل فيمسح مكان الصفع بالمنديل وراحت تراقص هذا وذاك وتجلس على مقعد « البار » العالي وتتمدد عارية على أديم الرمال ولا تعرف من شؤون الدنيا والآخرة غير الكلام في الجاذبية وقلة الجاذبية التي عند الرجال ولا تدرك أن عليها زوجها واجبات ، فهي ليست مسئولة عن بيت ولا مطبخ ولا أولاد لأن هذا من عمل الخدم والمربيات . أما هي فوظيفةها في الصباح الطواف بحوانيت الزينة والثياب والذهاب إلى الخياطات وفي الظهر استقبال زوجها بالطلبات ، وفي العصر التعلق

برقبته ليخرج بها إلى النزهة أو يدعها تذهب إلى (زوزو) و
 (شوشو) و (موشو) للعب (البريدج) و (الكونكان) .
 أظن مثل هذه المرأة توافقني على أن الرجل المحترم المسئول هو
 آخر من يفكر في قبول مثل هذه المرأة شريكا محترماً
 يسير إلى جانبه في طريق حياة جديدة قد تكون عظيمة الأثر في
 تاريخ بلاده .

أما النوع الثاني من المرأة فهو نوع تخرج بنجاح من المدارس
 والجامعات فحنق تقليد الرجل في جهله بشئون البيت ، ومعرفته
 بآراء أفلاطون وأبي العلاء ، نوع من حائزات البكالوريات أو
 الدبلومات اللاتي قد يصلحن للتدريس أو التوظيف ولكنهن لا
 يصلحن زوجات ، نساء يعرفن أفلاطون ولا يعرفن كيف
 تقلى بيضة فاذا مرض الطباخ أو خرج تغدى الزوج المحترم بزبدة
 أفكار أفلاطون .

أما خريجات المدارس الأجنبية ممن تعلمن قشور اللغة الفرنسية
 أو الانجليزية ومبادئ البيانو فانهن عرائس جوفاء صنعت في
 حوانيت (الميردى ديو) أو (الدام دى سيمون) لتوضع مع
 جهاز العرس في بيت زوج مسكين كتب عليه أن ينكب بحمل
 هذه الدمية المنحركة الناطقة (بمون شير) و (ماشيرى) من حيث
 أراد معينا يعينه على حمل متاعب الحياة .

وكلنا المرأتين لم تفهم مما تعلمته فى هذه المدارس المختلفة غير شىء واحد : حقها المطلق فى السيطرة على الرجل وإخضاعه وعدم طاعته وجعله خادماً لمطالبها نازلاً على إرادتها واعتبار أى حق له قبلها تأخراً يقابل منها بالاحتجاج والازدراء . هذا حادث فى مصر بالفعل الآن . أما فى أوروبا حيث عرفت المرأة كيف تصل إلا الاتزان المطلوب فيها كم ما تقوله زوجة فاضلة فى إحدى القصص الفرنسية الشهيرة قرأتها أخيراً بالمصادفة : (منذ الأيام الأولى لزواجى رسمت لنفسى خط سير محدد : هو أن أسمع وأعمل كل ما يريده زوجى ولم أنحرف أبداً عن هذا المبدأ ولقد وجدت نفسى بذلك على خير حال إذ بفضل ذلك جعل زوجى يسمع ويعمل كل ما أريد . هنا سر سعادتى وهى كما ترى قائمة على هذا المبدأ البسيط فلتفعل الزوجة ما يعجب زوجها يفعل هو ما يعجبها .)

هل يستطيع أحد أن يعدد لى كثيراً من الزوجات عندنا اليوم يسرن على مثل هذا المبدأ البسيط !!

إنى أعتقد أن الزوجة الصالحة هى تلك التى تستطيع مشاركة زوجها فى سيره الطويل الشاق فى طريق الحياة ، وأن تعينه حقيقة أصدق المعاونة على احتمال متاعب السير وأن تخفف عنه قسطاً وافراً من أعباء الحياة اليومية .

اسم أنرت فى نفسى صورة أخيرة المستر تشرشل وهو يمشى

إلى جوار زوجته مقننهم في إحدى الطرق . كل ما في تلك الصورة يدل على أن هذين الزوجين قد قطعاً معا على هذا النحو طريق الحياة بما فيه من هناء وشقاء . كذلك أثرت في نفسي كلمة إهداء صدر بها أحد كبار رجال السياسة في فرنسا كتاباً له ختم به حياة كلها كفاح : « إلى زوجتي التي تشاركني أيامي البيض وأيامي السود » فألى أن تسكن في مصر والشرق مثل هذه الشريكة أن نجد بدثرة رجالاً عظاماً يحتملون السير في طريق الجهاد والمجد حتى النهاية .

سليقة المرأة

أذكر أن فتاة مثقفة سألتني ذات يوم عن رأيي في اشتغالها بالصحافة . . وهل هذا العمل يناسب طبيعتها باعتبارها امرأة ؟ . . فقلت لها : ثقي أن المرأة مخبرة صحفية بالفطرة . . . سواء التحقت بمجريدة أو التحقت ببيتها . . . لقد كان « آدم » في الجنة هادئا وادعا ما كنسا لا يفكر في شيء ولا يصل إلى عالمه أمر . . فمن الذي جاءه بالخبر الأول في تاريخ الاخبار ؟ . . وأعني به اقتراح إبليس أكل الفاكهة المحرمة ؟ . . أليست هي « حواء » التي نقلت إلى آدم هذا الخبر الهام ؟ !

من الذي كان يسمع من « الحية » الكلام، ويجري معها « الاحاديث » ويستقى منها الاخبار ويفضي بها إلى آدم ؟ . أليست هي حواء ؟ . . اني أعتقد أن هذه الحادثة هي أول عمل صحفي منذ بدء الخليقة . وبهذا تكون « حواء » هي أول صحفية مخبرة ظهرت في السكون ، قبل أن تخطر فكرة الصحافة على بال مخلوق . . .

ان الصحافة في دم المرأة . . وهي عندما لا تجد خبرا تنقله أو شخصا تستجوبه ، تعتمد إلى زوجها فتقضي اليه بكل ما سمعت في يومها وما رأت في نهارها . . أما اذا كان الزوج هو القادم عليها من الخارج فإنها تستقبله بالسؤال تلو السؤال : أين كنت ؟ ومع من كنت

وفيم كنتم تمنحدثون؟ . والويل له اذا تهرب من الاجابة متذرعا بالنعيب
 أوراجياتا تأجيل الحديث ، أو مؤكدا أنه لم يقابل أحدا ذا أهمية ، ولم
 يصادف شيئا ذا بال . فإنها عندئذ تعامله كما لو كانت وزيرا خطيرا
 يخفى عنها عامدا أسرار أزمه دولية . . فهي تضيق عليه الخناق . .
 وتحاوره وتداوره بكل حذق وبراعة ؛ فإذا أكد لها وأقسم أنه ليس
 عنده ما يستحق الكلام ، صاحبت به أهذا معقول ؛ كل هذا الوقت
 في الخارج وليس عندك ما تقول ؟ . . وتظل به تستحشبه حتى يضطر
 المسكين الى أن يلفق لها خبرا لم يقع . . ولسكنها بسليقتها تدرك أن
 ما قال ليس له نصيب من الصحة . فتبتسم وتسكت متظاهرة بالاصغاء
 الى أن يتورط في سلسلة من الأكاذيب والمنتقاضات ، فتمسك به
 متلبسا بالا كذوبه . . فيعترف . . وهنا تقول له :

— لن أصدقك بعد اليوم . . كل أخبارك كاذبة . .

— ومن قال لك أن تمنحني مصدرا للاخبار ؟ . .

— لماذا تخترع ؟ . . لماذا لا تقول الحقيقة ؟ . .

لأنه لا توجد حقيقة . . لا يوجد شيء على الإطلاق . . وأنت
 مصمم على أن تنتزعني مني خبرا بأي طريقة . . .

— أريد خبرا صحيحا لا مخترعا !

لا يوجد . . قلت لك لا يوجد . . ليس عندي اليوم خبر صحيح . .

لم يبق الا أن أخترع . . . والا فلاسكت سكوتا مطبقة . . . وإياك أن

تسألينى شيئاً أبداً ..

— اذن أخترع .. هذا على كل حال خير من لاشئ ..

نعم .. ان الصحافه الاخبارية ميراث المرأة عن جدتها حواء ..
فلتهبط ميدانها اذا شاءت ، ولتنقل من الاخبار ما أرادت ، ولتسنى
من المصادر ما وجدت .. ولن يعوزها اليوم أيضا فى الدنيا «أبليس»
ولن تنقصها « حيه » فإن محيط المجتمع من قومى وعالمى يعج ويضج
بالأبالسة والشياطين والحيات والنمابين ، بأحاديثها ومغرياتها ومترحاتها ..
ولعل ملايين السنين قد علمت المرأة الآن الحكمة .. فلن تنقل
« الخبر » الذى يخرج آدمها الجديده من « الجنة » ! ..

فهرس

في الدين

- منظنة الأيمان . . . ١٣
الدفاع عن الاسلام . . . ١٨
نجم احمد . . . ٢٩
سير العظمة . . . ٣٤
المرأة في شباب النبي . . . ٣٩
جوهر الدين . . . ٤٣
الحان . . . ٤٨
التقصد . . . ٦٢
بين الخالق والناقد . . . ٧٧

في الادب والفن والثقافة

- غايه الأدب والفن . . . ٧٩
الفن والاصلاح . . . ٨٥
منايع الفن المصري . . . ٩٢
الثقافة الشرقية . . . ١٠٠
كنة الروح الشرقى . . . ١٠٤
إحياء الثقافة العربية القديمة . . . ١٠٥
أثر أوروبا في أدبنا الحديث . . . ١٠٨
الادب الغربي في الماضي والحاضر . . . ١١١
كرامة الفكر . . . ١١٥
من النيل إلى السين — ١ . . . ١١٨
من النيل إلى السين — ٢ . . . ١٢٢
من مشكلات الفكر . . . ١٢٥
بين جيلين . . . ١٢٩

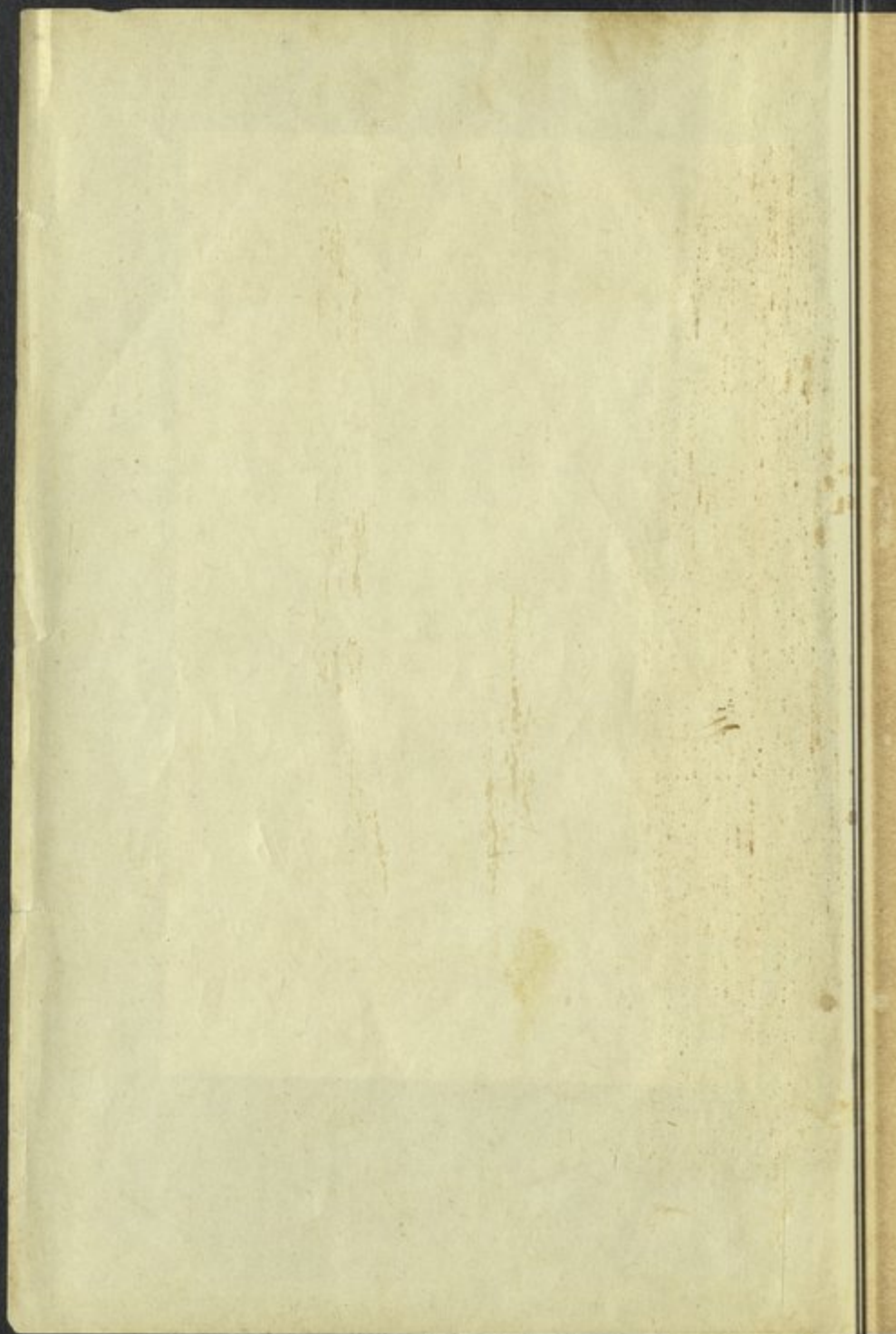
في السياسة والاجتماع

- هستريا السياسة . . . ١٣٥

- جوح الديعوقراطية . . . ١٣٨
الايان بالمثل العليا . . . ١٤٠
داء الكلام . . . ١٤٢
البرنامج أولا . . . ١٤٥
فساد الدولاب . . . ١٤٧
الحرب بكل الأسلحة . . . ١٤٩
نعيم الانتخبات . . . ١٥١
شركة مقاولات الانتخبات . . . ١٥٣
المرئس . . . ١٥٥
الشجاذوث . . . ١٥٧
الأحزاب والشعب . . . ١٦٠
الفكر والشعب . . . ١٦٤
كادر المقامات . . . ١٦٨
مصر والشعار الدولي . . . ١٧١
المعنى الانساني لوحدة ارضى . . . ١٧٤
البعث . . . ١٧٦
دولة العميات . . . ١٧٨

في المرأة

- المرأة والمجتمع . . . ١٨٤
المرأة والوقت . . . ١٨٦
المرأة والفنان . . . ١٩٠
المرأة وأشواقها . . . ١٩١
المرأة والعظمة . . . ١٩٣
المرأة والحريية . . . ١٩٦
المرأة والبيت . . . ٢٠١
سليقة المرأة . . . ٢٠٥



DATE DUE

For

842.74 HTS1A.C.1

الحكيم، توفيق

تحت شمس الفكر

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01036304



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

892.74
Ha438tsA